



# أحوال الديار

قصص



عبد العزيز مشري

## إهداء

إلى " أحمد "  
الجميل دائماً

الغلاف واللوحات الداخلية للمؤلف

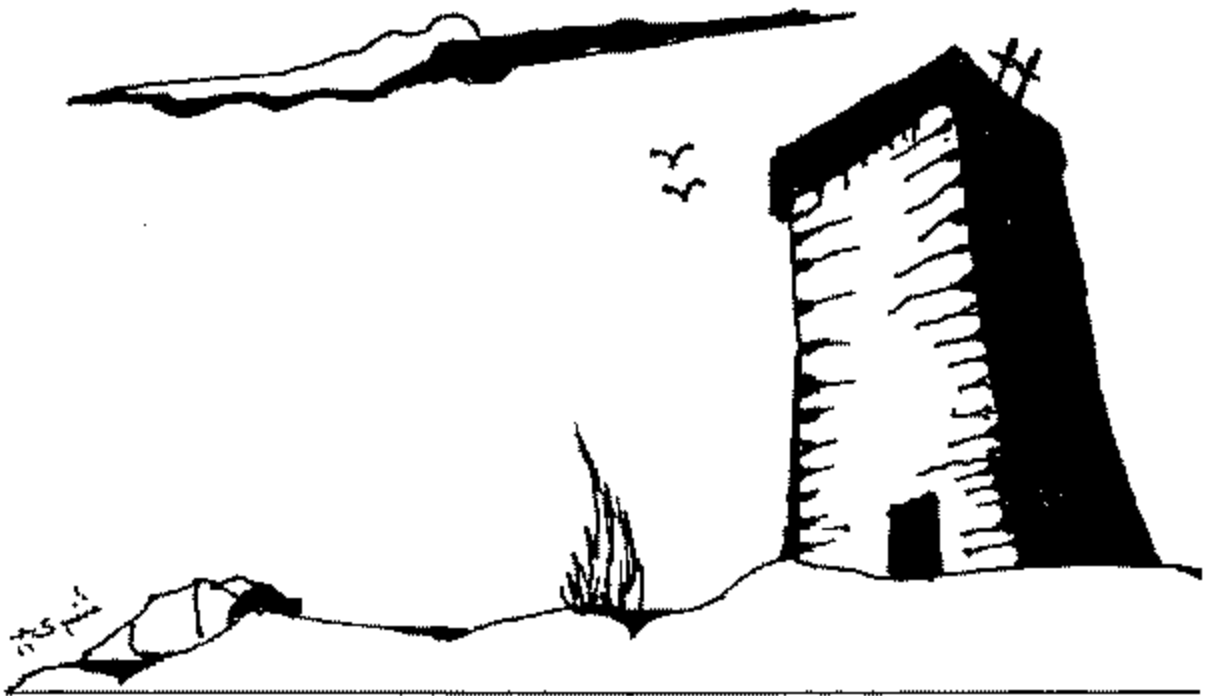
" ينبغي أن نحاول توعية البشر على  
العظمة الكامنة فيهم  
والتي يجهلونها "

«اندرية مالرو»

صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة عن النادي الثقافي الأدبي

مجلة عام ١٤١٤هـ — ١٩٩٣م

## الرقبة



رقبة واحدة بكامل رأسها وبدنها، لأهل قبيلة بني فلان.. عند  
قبيلة بني فلان.

فبعد شهر مضى بياضهن وسوادهن؛ على قوم رأوا النقيصة في  
الحق، والهزلة في ثمن لا تنوب عنه نائية إلا جنسه.. وما قيمة  
النفس المسفوكة أمام عرف القبائل، إلا النفس؟!!

ليس على من رغب في سبر حقائق الحروب بين الرجال اليوم  
مطية، فالبنادق أفرغت بطولها، عند أول مستغيث صاح في  
مسمع القبيلة. فإن كان في الوقت باع من الفراغ، فها إن  
الآدميين يدورون عن سبب ينضحون به دماء الخطيئة، ويقتصون  
من المعتدي الفرد باسم قبيلته.. فهو ليس ابن فلان في الذنب..  
بل ابن قبيلة بني فلان. وعلى من تسوقه إلى الحتف، غياهب  
الغيب.. فاتحة الكتاب والدعاء بالرحمة.

\* \* \*

اليوم.. أغدقت القبائل جام سياجها، وعيرتنا بالخدلان والهزيمة،  
فمن منا "يعرف حال خاله"؟، ويقول أنا ابن قبيلتي، التي منسها  
أبي: فلان، يأخذ رقبة بالرصاص من قبيلتهم، يغدو مرتعه حميداً  
فوق ألسنتنا.. ويكون بين القبائل مذكوراً.

صمت الجميع.. وجرت النخوة المشروطة بعروق "دامك المدموك"، فضرب على صدره، باسطاً كفه بخمستها على موضع القلب، ونطق بكامل التهيؤ والاستعداد.. على أن ينفذ له الجماعة مطلباً لا يجيد بالطمع في مطلب غيره.

قالوا؛ هات يا ابن مدموك.

قال، لا أقول حتى تضمنوا لي مطلي.

قالوا، من يشتري الطير في الهواء قل لنا نظير ونسرد، فنكسونه بالحكمة غير مخالفين.

أهمل يده عن مكان القلب في الصدر، وبت نظرة في الوجوه؛ وقال؛ أربعة رجال مسلحين بالبنادق تحضروهم.

وبالقول العجيب نشدوه عن حاجته إليهم، فقال مفصلاً على أصابع اليد؛ اثنان من أمامي، واثنان من خلفي.. بعدها لا تحملون هماً.. "ابشروا برجال".

\* \* \*

(لا أضحكك الله لك سناً يا "ابن مدموك".. تريد من الرجال أربعة.. تغزو بهم قبيلة بني فلان، لتأخذ بثأر رقبة لنا عندهم؟!.. كفاك يا فارس الزمان؛ وقاهر المهام.. لو أن أربعة سيحتزمون بالسلاح؛ وتعلم قبلاً بخاتمهم، لما اجتمعنا في مثل مجلسنا هذا).

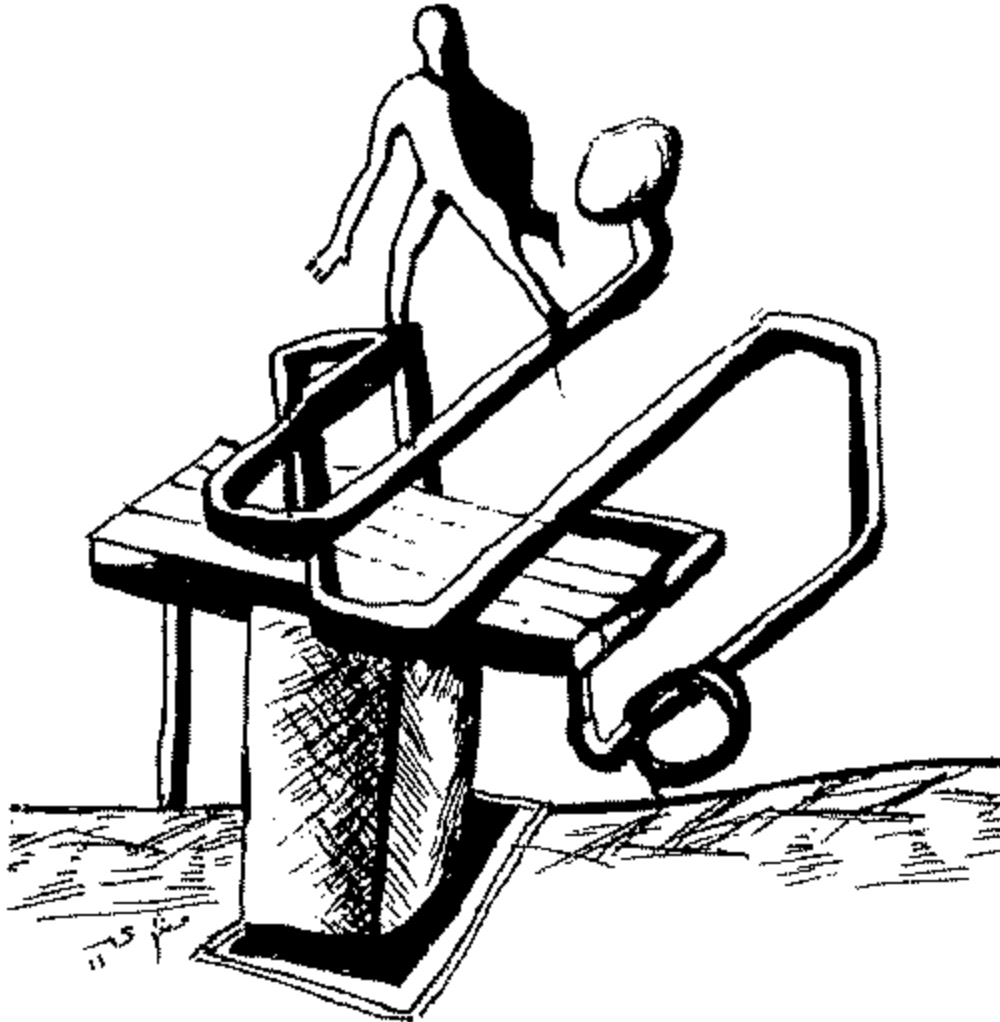
هيا.. قم، والزم الطريق إلى بيتك، فإن مجالس الرجال.. لا تجسد  
لك فيها مكاناً.

\* \* \*

قال المقولون، وحتتها الأشداق في الجبال والوديان:  
تحين القوم يوم سوق المقرى، وفي مكنم الغافل، أمسكوا في  
الطريق برجل من غريمتهم القبيلة المعادية، وكان على ظهر  
حمارته.. ينوي السوق وقت صباح العالمين، فأنزلوا على  
رأسه حد الفأس، دون صوت للبنادق.  
عادوا بالنشوة على الضعيف منتصرين.  
عاد هو ملمماً في ثيابه بالدم والموت وحسرة المظلوم؛ إلى أهله  
يغسلون ويكفنون.. وليندبوا أولاً يحزنون فقد "وقع الفأس في  
الرأس".

جلد ١ - ١٩٩١/٨/١

## الوانيت





باع "أبو عبد الله" الحمارة برخص التراب، وأربعاً من الغنم، وعرض على الجماعة في مقعد ما بعد العصر.. جتته الصوفية ذات اللون الأحمر للبيع.

وأحاطت زوجته قامتها بلفة من يدها حلفاناً بالسالمين؛ أهما لم تدخر من جوهر الفضة وحببات "الظفار" .. بعد اليوم شيئاً. وما دام الحال، سيغدو مثل الآخرين في الأحوال.. فما الحاجة إلى متاع لا يجعل المرء في عيون الناس غير ناقص عنهم؟!.

اليوم، ابتاع "الجبلي" سيارة "وانيت" بيضاء، بجوز يتسع لكل ثقل يحمل عليه، والبارحة؛ كان "أبو خُرج" بعد أن كسّر وجبر، يهئ لسيارة أبنه التي اشتراها من فوق لحمه الحي.. مكاناً فسيحاً في الساحة. وتقول "صالحة الفروية" إنها أراحت عجيزتها خلفما اشترى أبو العيال؛ سيارة، تحمل الماء والطين، ومقاضي السوق،، والمريض إلى الدكتور، والصبيان إلى المدرسة.

فماذا ينقصك يا "أبو عبد الله" عن الجماعة!

وماذا تميز رجال القرية عنك؟. لهم مثل ما لك، مزارع، وماشية، وبيوت من حجر وطين.. فلتجمع فتات مسالك وحلالك و"حلي" "أم عبد الله" ولتستعين بذئ الرزق البصير، توكله فيه

على خطوتك إلى صاحب معرض السيارات، الذي يبيع بما يقبض من حاضر النقد، وبالدين، وبالتقسيط.. تشتري سيارة فارعة البياض، بخطوط جانبية حمراء، وحوض مسيح بالقضبان.

\* \* \*

جرى ما جرى من أمر البيع والشراء، وكتب البائع على صاحبنا في وثيقة البيع.. قسطاً من القيمة يسدد على مدار علم.. يبدأ بعد شهر قمري.. فرضي "أبو عبد الله" .. يكون "عبد الله" بعد شهر قد تخرج من "معهد إعداد المعلمين" ووجه مدرساً.. يقبض المعاش ويسد القسط.

وحين غمس "عبد الله" مفتاح السيارة في رقبة المقود، واستنهض معرفته التي جمعها مع الأيام مسن بعض زملائه أصحاب "الوانيتات" .. وجه قبلتها من مكان المعرض بمركز سوق القرى، إلى أن وضعت دواليبها السود الأربع في أول مدخل خط القرية الترابي.

وكانت فرحة طفولية تلمع في صدره كالنجم الأخضر، وتترجرج مع رجرجات الطريق الجبلي المتعرج، بينما كان "أبو عبد الله" الشايب، يتوقى متحسباً وقع دوران العجل على

صلابة الأرض، وتضاريسها المكتسية بالحصى والتراب، وكان هو الآخر يترجرج، ويحاذر أن تدير راتحة البنزين رأسه المغمم، فتستشار معدته ويرى النجوم في عز الظهيرة. غدير أن سعادة يسيرة؛ ربما تكبر في البيت.. كانت تتلمس خفاياه. استقبال الأولاد على مسافة من البيت بعيدة؛ السيارة الجديدة، وتعلقوا بحوض صندوقها كالحالمين.. فنهرهم أبوهم مخافة أن يقعوا عن ظهرها فتدهسهم، وشتم شقاوتهم.. لكنه ما لبث أن بلع لسانه أمام مقدم الضيف الجديد، والمنتظر منذ زمن ليس بالقصير.

وقالت "أم عبد الله" وهي تقر عينها بابنها المتعلم:  
الحمد للذي لا "تسها عينه ولا تنام" .. اليوم اهنتي يا بنت فلان، لديك الزوج المحب، والولد، ولديك في عيون الأخريلات، كالعروسة سيارة بيضاء "وانيت" .. بخطوط في الجانين حُمر؛ لا تنقص ولا تبقص عن سيارة "صالحة القروية" أو "الجبلي".  
تبادل كل أهل الدار التهاني والتبريكات، وأحضروا إلى قريتها في الساحة قهوتهم، وقعدوا جميعاً يتأملون.. يقتسهون، وبحسن الكلام والملحة يتحدثون.

وسقطت البنت الصغيرة بثوبها الشبيه بمكنسة القش.. من على جانب حوض السيارة.. إثر قفزة شقية تعلق بها ثوب، فلقيت مع عناء سقطتها؛ نثاراً من الإهانة والوعيد، ابتلعت مع كثير من

لعاب الفم، وقطر العين، وسائل الأنف الذي جاء على هيئة الصمغ المبلل بالماء فوق كُمِّيَّ اليدين.

\* \* \*

شهر مضى بأيامه الثلاثين، كما تنفرط حبات القلادة من حبلها العتيق، وحن على "أبو عبد الله" أن ينقذ صاحب معرض السيارات قسطه الشهري الأول. و"عبد الله" الذي ينفق عزً وقته في أول الشباب؛ مع السيارة، فيختلق المشاوير، ويطيل عن البيت في الغياب.. فكان ما كان من نتيجة الدراسة، (ولم يكتب الله) لغير ذي الاجتهاد نصيباً في النجاح.

امتدت يد الأب إلى غنيمات بقين من القطيع، ولصاحب المعرض أوفى بدين التقسيط، وإذا كانت "الأولات الروابح"، فله في تدير شأن العباد مع بوادي الأيام؛ شأن سيكون جديداً.

وقالت "أم عبد الله"؛ حين هاج وماج صدر الشايب بالحسرة والغضب:

لا تثقل يا مخلوق على ولدك، انظر ابن فلان وابن فلانة.. يدرأ أهلهم عنهم الرياح، وما زالت بنواعم الكلام، و(احتمال مائلة الزمن في انتظار حير الولد).

فازدرد "أبو عبد الله" مع "خُبزة" العشاء تلك الليلة؛ سباباً لم يخرج من صدره، وتوضأ، وصلى العشاء، وسجد سجود السهو، ولعن "الوسواس الخناس"، وطوى سجادته.. ثم التفت

بالغطاء في مكان ناءٍ ، وعلى عدد من دعوات ما قبل النوم في السر أطبق جفنيه ونام.

\* \* \*

أُجرد عن "شعبان" شهره، ودلف بالصوم "رمضان" .. فيه خير الأجر؛ وضعف الحسنة، وفيه "العمره" بثوابها كمن نال مغفرة "الحج". قال "أبو عبد الله" في حضرة زوجته، من بعد إفطار يوم رمضاني في العشر الأواخر من "الشهر الفضيل": أظن مثلي لا يضيع حالة هُئت له مع الولد والسيارة: (عمري "يا الله، حُسن الخاتمة" البياض في يفتك بكل سوداء، وليس لآمن الأيام أمان، غداً مع الفجر نحزم النية بعد "السحور" وركعتي الصبح، ونوجه عزيمتنا بإذن الله.. إلى "بيت الله" .. نطوف ونسعى، ونشرب من ماء "ززم" وندعو الله بدعوات فيهن طلب الصلاح للولد، واستزادة طيب الخير، والمغفرة من كل ذنب على الإنسان اقترفه؛ بقصد أو بدون قصد).

رأت الزوجة في رأي شبيتها الخير، ومتى كانت لا ترى في رأيه الرأي، ولو في معصية.. فكيف في دعوة إلى مرضاة الرب؛ وفيها الفسحة والأجر؛ ونفس المدن الحارة البعيدة؟!.

\* \* \*

سمعت هجعة القرى في الليل "مدفع السحور"؛ من مركز سوق القبائل، وكان "أبو عبد الله" منذ بلغ الشهر عشرته الأخيرة؛

يؤدي بحسن العبادة "صلاة التراويح" فأوتر البارحة؛ و نام بلسان  
 يلهج بذكر الله والرغبة في طيب الأجر والجزاء.  
 وعندما أيقظته على الموعد "أم عبد الله" .. قام على جهد ركتين  
 تنودان بطريق أوجاعهما وعلى نفس مثقلة بالنعاس ونفاذ  
 الشهية؛ وتبّلّع لقيمات السحور، مع الزوجة والولد.  
 كان عليهم أن يُودعوا نفر الأسرة من الأطفال .. عند خالتهم في  
 القرية القريبة .. وعلى مضض العاجل المتعب أيقظوه.  
 خلف صلاة الصبح .. ركبوا في "وداعة الله" سيارتهم، ولم تفتح  
 شمس النهار عينها؛ إلا وهم في مقطع من الطريق الأسود الطويل.  
 كانوا صامتين، وكان لكل صدر مع خراطره في جهامة  
 الأسفلت أسفاراً، وكان "عبد الله" قد تملل في السكون  
 المسكون بهدير السيارة، فحرك بإصبعه مفتاح الراديو، الذي بث  
 كلاماً لم يكن ليعني أبويه في شيء، لكنه كان يهلهل الركود  
 المثقل بالسخام، ورائحة الأفواه الصائمة.

\* \* \*

والدان، وابن اسمه "عبد الله" .. أدوا واجب العمرة، وطافوا  
 بالبيت، وسعوا، وشربوا من ماء "زمزم" حتى فاضوا بالارتواء.  
 ودعوا الله بكل الدعاء في السر والعلانية، وعمرت نفوسهم  
 بالرضى، وبقي أن ينفذ الشايب مخائب الثوب، ليشتروا  
 لأطفالهم ما يرضي نفس الطفل المنتظر. و رغبت الزوجة في حمل

"جالون" البلاستيك المعبأ بماء زمزم.. فنالته، وبقي أن يهثوا  
مسيرتهم إلى حيث جاءوا.

في الطريق الأسود الضيق.. كان الليل يدغم بسواده على  
السواد، وبين غمضة عين و انتباهتها.. يشع في العين نور سيارة  
قادم.. فيحطف بصر الرائي، ويتزخيرة "الغشيم".

وحيثما خانت اللحظة الفصل؛ تقابل شعاعان، فعميت العيون،  
وضربت قوة الحديد في الحديد.

\* \* \*

أذن ظهر اليوم التالي؛ على جماعة كثيرين، ونساء كالغربان  
بالعباءات يتجمعن في الغرفة الداخلية.. بينما كان إلى حافة  
الجدار جثتان مسجيتان، قد غسلتا وهيتتا للدفن.

أما "عبد الله" فقد انطفأ دمه بعد أيام ثلاثة؛ بقسم الطوارئ  
بمستشفى كبير، له نوافذ زجاجية عالية، وأشجار سهامية صامتة  
بمدينة يخلفها المغادرون إلى الجنوب حين يعودون إلى قراهم.

١٩٩١/٨/٧ — جده

## تأتيك تجريب



ومع اختلاط لون الأيام اكتست الأصابع العشرة بقساوة الحجر، وساحت خطوط الكف، وترصعت مقام البصمات بالجروح، فبدلت كسوتها من الجلد مرات.. وجاءت "كويات" الشمس على الصدر "المشنون" فبدأ كجلدة الطبل؛ لا نبت ولا لين.

أما وإن بناء الحجر والمطربة والسيخ: "سعد" يقضي أغلب مهارات السنة بين الصخور المقطعة؛ يهدبها ويرصفها بعضاً فوق بعض، لتغدو مداмик جدران مستوية؛ قد أحلى عن نفسه مهمات الزرع والحصد للمبلية بخمسة عيال؛ تكبرهم البنت وتصغرهم أختها، فإنه لا يسأل عن الخضراء ولا عن الصفراء، إلا وقت كيلها بعد الحصاد وحشوها في الأكياس.

\* \* \*

شكت "عزة" إلى عزيز القلب "سعد"، وقالت "يا راعي دارنا، بنتك تنام وتصحو بوجعها، وتلفظ النفس الجريح، وتدفن ويوح ألمها ولا تقول.. تعال خذها إلى طيب يحكم فيها الصدر العليل.. عليها ترى من بعد مرض العافية).

وكانت المعلولة تجتر مع نفسها المسلول جرعات الدم، وتقذفه على استحياء في الأركان والخرق البالية، تغسل رثيها بالهواء وعلى القدمين المتعبتين تجرجر الخطى لتساعد الأم في فتافيت الحياة.

أمسك الأب باليد القاسية لحيته القصيرة الهابطة، وبعينين ترايبتين  
سكبهما نحو المريضة؛ سرح يدور عن شأن يصلح به الحال،  
فقال: (هيا، احملها على كتفك و أحملها عنك مرة إلى فلان  
الحكيم)، وكان مفرج الكروب على اللسان يرتع ملء الوقت،  
وتزيد الأم عند آخر القول: "يا معافي".

وضع الطبيب على العلة عين الفحص، وثرثر بكلام خير ما فيه  
أن البنت تحمل الصدر المدمى بالسل، وقالها خلفها عجز عن  
توضيح "الدرن الرثوي" وأعطاهما الدواء، فحملاه وجرعاه  
للعيلة على الوصف.

\* \* \*

في الآتية ما بعد الثانية، قال الطبيب: (كُتب لابتكما العمر)  
وفرك يديه الفارغتين، وكان "سعد" يتطلع إلى أيامه، فيجدها  
بابنته مشغولة عن العمل فيقول كما يقول المصاب المحتسب: "لا  
حول ولا قوة...".

وحين كانت الشمس توسع حدقتها وتقطر بلهيبها على رجل  
وامرأة، يتناوبان في حمل صبية معلولة، على مسافة ساعة من  
مكان الطبيب؛ كانت المعلولة تتذف من فمها الدم، وتنوء  
بصوت محموم، فتهدب الأم "شرشفاً" أبيض وتثنيه بالتساوي  
على الرأس الصغير.

وكان الأب يتقدمهما بصدر مهمل "الزرار" كالشسن، ألبته الشمس فصلب عليه الجلد.

حلفت "عزة" على البنت المريضة باليمين التي لا راد لها، أن تأكل التمرات التي وضعتها منقاة لها في الصحن الصغير، وسكت على مهل في الفنجان الأبيض حتى فاض بالقهوة المبهرة، ورفعته بعناية قلب الأم إلى ابتها، وقال الأب في تدمر: "إن القهوة بالجنزيبيل لا تصلح للمرضى الصغار، فاختارت بين قول وفعل تصارعاً فوق اختيارها".

\* \* \*

كان النهار يطل رطباً ومضيئاً، وكان هدوء يسمع فيه طنين الذباب يربض في جوانح الدار، وكانت صبية تشارف التسع، تدعك الأرضية الترابية بمكنسة من القش، وعلى العتبة طفلتان وطفل يلهون بشيء في أيديهم، ويصيح واحد، فترفع الصبية جذعها، وتوجه عامدة الأطفال لتصلح شأنهم.

وكانت امرأة متوسطة القامة والعمر، تشد وسطها بحزام مبروم من القماش، فيرفع ثوبها الأحمر المشجر من أسفل القدمين، وبيّن على مبيض طوق السروال المطرز... تدخل متخطية الأطفال، وبين ذراعها حزمة من الحطب الجفاف، ألقته إلى جانب "مشب" النار، فأحدث رطمة قوية، وجاءت إلى الصبية،

ونفبت المكنسة من يدها وهي تقول: تعالي.. إنك تحتاجين للراحة، وترد الصبية: (أنا بخير يا أمي، اتركيني أساعدك). كان ضحى أول النهار يستحث أهل الدار إلى أكل وجبة الفال، وكان "الفال" يتورم على هيئة "خبزة" من الخنطة بالخميرة في مكان المشب.

بين هذه الفتافيت صاح رضيعٌ بحدة من اللقافة الرمادية قرب النافذة الصغيرة، فأهملت الأم كل ما في يديها واتجهت نحوه على عجل.

\* \* \*

قال صاحب البناء للبناء: إنك يا "سعد" بالحق تريد أجرتك، ولكن، هاك بعضاً منها، والبعض سأعطيك بدلاً عنه هذا "المذيع"، وكان المذيع بنور صغير أخضر، ويعمل بالبطارية الكبيرة، وله أسلاك تمتد على سطح الدار فيبين للسامع، ويحلو في العين، غير أن "سعد" يريد أجرتة بالريالات. تنفس حاله، وثسكت يد الطبيب، وعلى كثير من الحياء أخذ المذيع ومضى. حين لمع الصندوق المسلك بالنور الأخضر الصغير، كان الأطفال والأم يتلملمون كأصابع الكف من بعد عشاء مزدانين بالفرحة، ومدججين بوافر السؤال الذي لا يلقي من الجواب إلا القليل. كان "سعد" يجاهد في القبض على الابتهاج المدغم بارتقاء صحة المعلولة، وكان لا يسرق هذا الابتهاج غير يد الطبيب.

وبين غمضة وعشيتها، جاء من حمل "المذيع" بأسلاكه المعلقة  
بالخرز على السطح، تساءل الأطفال، وعلى غيض مدفون؛  
سكتت الأم وتجاهل الأب.

\* \* \*

قال "سعد" في حضرة انفراد مع "عزة" معاتباً تدهور الأمـور:  
"تفو عليك دنيا". وسألت على حذر الزوجة المستغربة زوجها،  
فأجاب:

(أخوات فلان يطالبنه باقتسام الإرث، وأوضح طيبة فلان ذلك  
وعجزه وقلة الولد والمال في يده).

إنه لا يستبعد في دنيا هذه الأيام ، أن تأتي الصامته المتزوجة من  
الأخوات، فتفعل ما فعلته فلانه.

وذكر أن الأرض التي كانت تملأ العين بالزرع البارحة، أصبحت  
بلا ثمن، وأصبح السطح أغلى، حيث يقطع الخط المرصوف من  
قبل البلدية، ويعطي عنه "معوذاً" غالياً في الثمن.. فتنبهت إلى  
المال القلوب الغافلة.

و أن فلاناً قبض من الريالات ما يعجز عن استيعابه، في سفتح  
قرب أرضه الزراعية، لا يسمن ولا يغني من جوع، فاشترى  
لولده الوحيد سيارة جديدة، وبني بيتاً كبيراً بالطوب والأسمنت،  
فأما السيارة فقضت على الوحيد في ذات حادث، وعجنت لحمه  
بحديدها، و أما بيت الأسمنت الكبير، فقد فرغ من ساكنيه و ها

إنه بعد موت زوجته، وبعد عجزه عن القيام، ينفق باقي العمر، ويشكو من برد جدران "الإسمنت" في الصيف والشتاء.. يذكر أيام الحرث بالثيران والسقي بالخير، ويصفق كفاً بكف على ماضي كان القوم جميعاً فيه يزرعون ويحصدون ويتعاونون.. واليوم لا مجيب ولا زائر لنداء ووحدة القاعد والعاجز وزاد: (فلتغرب الدنيا بأموالها.. تفو يا دنيا).

\* \* \*

لملمت الشمس آخر أرديتها الحمراء من بعد صفرة، ولمت "عزة" دجاجاتها، وأعلفت في مرابطه الحلال؛ وخرجت الصبية تسدور على الحمارة، وعادت وقت إذ سقطت في الظلام خلف الجبل الشمس، وقالت للأب العائد إلى الدار، حين "مسي بالخير" على "عزة"، أنها وطئت القدمين على الشوك والحجارة المتناثرة في غير الطرق؛ تدور على الحمارة، ولم تجد لها مكان حافر. فخرج الأب في غسالة الشمس النائمة منذ وقت قصير، ودور عن الحمارة الضائعة.. "فأين شردت تلك الجنية؟". (اسمع قولي يا أبا فلان.. اذهب إلى الفقيه، وانشده عن حمارتنا الضائعة؛ عله يهديك بعلمه ومعرفته).

وحيثما بسط على حرقه أمر حمارته على الفقيه قال: عمامتك،  
وخمسين من الريالات.. سأقرأ عليها المعوذات، وتأتيك حمارتك  
بحري مع الفجر).

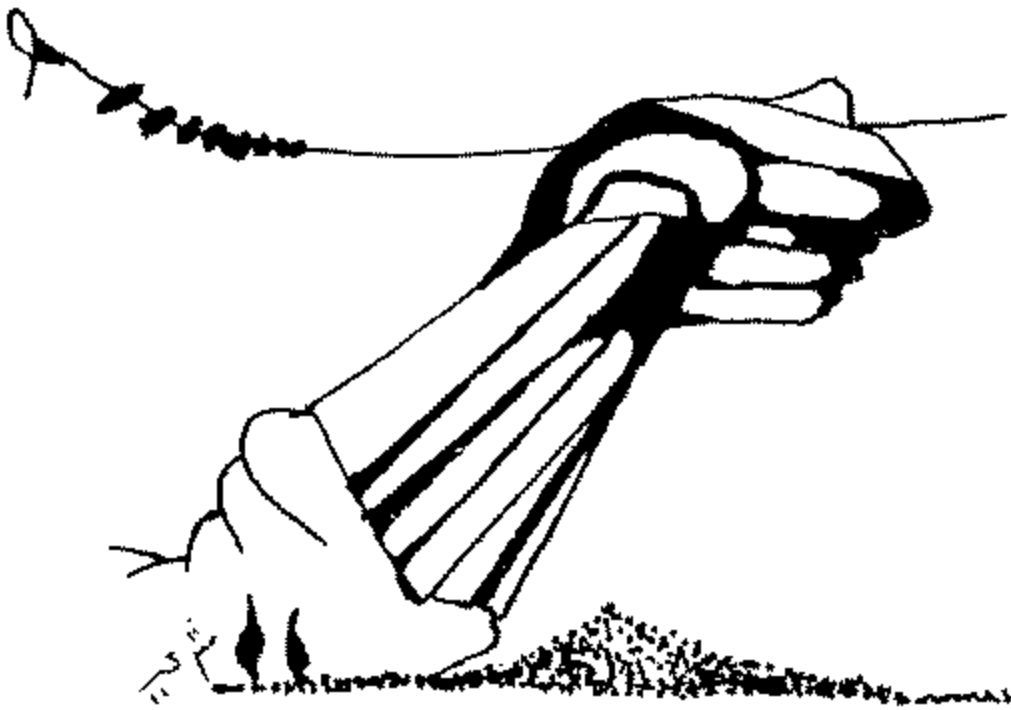
وحيثما جاء مع الفجر، ولم تأت الحمارة؛ قال "سعد" وهو يندف  
صدره اليابس:

"حسي الله" ذهبت الحمارة، وذهبت الريالات، وسأذهب استرد  
ولو بعد خصام عماتي.

كانت "عزة" تقعد القرفصاء إلى جانب "سعد" وتغسح عينيها  
وعنايتها لفنجان القهوة الذي ملأته حتى النصف لأبي عياها،  
وكانت الصبية تفرع في أوان نحاسية جداً قليلة قرب "المشب"، أما  
الأطفال الذين هدأوا بعد شغب قليل، فقد انشغلوا بشيء  
ياكلونه في أيديهم، وكان رد "سعد" على كلام جاء على هيئة  
سؤال من "عزة" عن تحديد الوقت الذي سينوي فيه تسجيل  
الأطفال في المدرسة: "قريب، خلغما يخلص الشهر و تبدأ  
الدراسة في المدارس".

١٩٨٩م — الدمام

## بالمشعاب





لم يسلم مكان طَفَّر فيه العشب والكأ؛ من فعل ما تفعله الشاة في الخضرة تحت القريض والصلف، فالراعي القوي المعاند صاحب البيت الفائض بالصفوف والروث والجلود؛ يحب "حلاله" كما يحب عياله، ويدفع عنه باليد والمشعب، و يسحب هامته المشهورة في القوم من واد إلى مسقى، ويخشى سطوة اللسان فيه؛ البعيد قبل القريب، وإذا ما أوشكت المتردية أو النطيحة على الفوات؛ تردد في حدّ سكينه وذهب يمرّر "شباها" على كرهه في الرقبة التي (قضى الله عليها أمراً كان مفعولاً).

و ها أن برق "جنبيته" المعقوفة يلمع في وجه ابنه الذي أهمل عنوة يوماً الغنم؛ فعرض ناب الذئب فخذ المتخلفة تحلف القطيع فالولد من عيال البيت، وعيال البيت يتشبهون اللحم والمرق، وسكين الأب لا تجرؤ على طعم الدم، وحيلة الابن ليست أقوى من الحاجة. قال لسان العم "عايض الصخري" لإهمال الإبن المتعمد:

"طيب يا سايب.. والله، لو لحقتك لأروي جنبيتي من دمك".

خاف قلب الابن وهبت ساقاه تستجدي الفرار، وقالت الأم للأب المغلظ في القول بالحلفان:

"ولدي يضيع تحت الغضب من أجل شاة".

تفصّلت مشية الشاة التي كاد يأكلها السبع، ورأى عيال البيت أن تذبح، وخرجت لواعج البطون، وقال من لم يدر بوجع القلب الحزين:

"هذا رجالٌ بخيل، يسمي شياه قطيعه، كل غنيمته باسم".  
وما ظلم لسانُ الشامتين، فقد كان يسمي كل ذي ثغاء في  
القطيع المترامي باسم؛ فيدعي هذه "مبروكة"، وهذه "خيرة"، وتلك  
"هيلة". وحين تستريح في قيلولة النهار أمام البيت، وتجتري بقايا  
الرعي، لا يستريح، يقعد بين أصوافها؛ فيجز بعضها، ويفلسي  
البعض من حسك الزقوم.

\* \* \*

سلم الولد من غضب اللحظة، وسرقت السكين "بشباها" رقيه  
من عض السبع فخذها، وقال أهل البيت خلفها أكلوا اللحم،  
وشربوا المرق "الحمد لله، شبعنا من خير حلالنا".  
وتأهب "عايض الصخري": يغسل كفيه وشاربيه من الإبريق في  
الساحة و يقضي حاجة تؤرق منامه، يتدثر جبة الصوف ويغمس في  
الهدأة والسبات خاطره وعينه .  
ووقت إذ لم ساقيه النحيلتين الطويلتين تحت أطراف جتته؛ سمع  
مناديا من الساحة ففز على قدر حثيث، وفتح الباب، كانت ظلمة  
ما بعد العشاء لا تدع للناظر أن يتحقق من طرف يده، ورد كالعادة  
صاحب الدار الذي كان في أمن وسكون النائم الشبعان: "أهله  
الله.. أقلط".

وكانت حذاؤه المجلدة تفرقع في الآذان؛ وقلط من السباب نصف المفتوح، وبدون دعوةٍ قعد، وعلى الفور قال:

- "اسمع يا عايض الصخري، ما جئت أشرب قسهوتك" في نُص الليل.. الجماعة أرسلوني أحذرك".

- "خير إن شاء الله" .. مم تحذرنى في مثل هذا الوقت؟

كل من عنده قطيع.. أرسله للبدو، بعيد عن الزراعة.. إلى، ما بعد الحصاد، وأنت الفرد المعاند.

ألقي "عايض الصخري" جيته ولهض إلى الداخل في عجل، ثم عاد وفي يده مشعابه وقعد، قال وهو يضرب به ضربة ثقيلة على فرش الغرفة:

- "روح للجماعة.. قل لهم، حلالي أغلى من عيالي".

وعلى نثار من القول اللائق في مثل هذه الحال، راح الرسول يهدئ ويهون، ويطلب لنفسه في السريرة من الله الستر، ووقاية الزعملى، وقال:

- "بكرة النهار يا صاحب، تحتاج جماعتك؛ فلا تلقاهم".

أضاف

- "اسمع قولي".

وبضربة كادت تخلع راس المشعاب قال ثانية:

"قلت لك، حلالي أغلى عندي من عيالي.. هيا، إسّر".

و.. سرى، فكاد يقضم لسانه وفي البال انكسار مُحدّة.

\* \* \*

كبر الولد، وهرمت الشياه التي كانت أعلى من العيسال، فمات البعض، وطاح البعض، والبعض امتدت عليه يد الحاجة فحشـرـجـت وقت بيعها الريالات. غير أن بعضاً في القطيع بقي ينجب "بمماً" صغيراً، فيملاً العين مع الزمن ويملاً الخاطر، وقالت الزوجة، وقد نزلت الدار من العيال:

أشقيت نفسك، وحفيت قدمك، وشاب حتى شعر صدرك.. لا حاجة، ولا مقدرة لك على الرعي.

التفت "عايض الصخري" إلى وجه زوجته، وقال بالقول القاسي:

– "أقول لك.. نسيي؛ إن حلالي عندي أغلي من عيالي".

وذكرته على حين غرة:

– و أنت نسيت أن القطيع سبب قطيعتك عن الجماعة ، أيقظت دواخله، فالجماعة ذات ليلة بعثوا مرسولاً يحذره ، و كل ذي غنم وقت الـزرع ، يودعها عند البدو إلى ما بعد الحصاد، و أن رأسه القاسي، ومشعباه العنيد "أبيا عليه"؛ فقال:

– طيب، تقدرين تقولين لي؛ كيف نعيش؟ الأولاد كبروا و تزوجوا، والبنات لحقوهم، و الأحفاد أفلحوا المدارس، لا راعي، ولا من يرد".

ولم ترد الزوجة، فردّ الزوج أحجل نظرهما، قامت "تمستعين بالله" إلى الداخل لشأن لا بد أن توقّته كان ملائماً، و بعد غياب قصير جاءت وفي يديها القهوة المهيلة والتمر.

\* \* \*

على منحدر سفح خفيض في واجهة الوادي؛ كانت غنيمات قليلة تسرح في تيه حذر ما بين أفواهاها وعصا الراعي، وكان رجسلي في أرذل العمر، على استكانة غامضة يتدثر بجبة صوف بيضاء يحدث خاطره:

(اليوم، يا عايش الصخري؛ تدور عليك، وعلى "حلالك" الأيام، فتبقيك بحب قلبك شعراً أبيض، وعظماً واهناً، وعدداً قليلاً تبقى من الشياه، وعصى لا فعل لها، وأبناءً فرقتهم السبل، وزوجة لا تقل عن وهنك وهنا، وجماعة نفر أغلبهم عن طبعك الصلب، وسحابة لا يطر، وأرضاً تعطي ثم جهدها. أناس يتطاولون في البناء والسيارات والزخرفة.. فغن:

(ما بقي إلا أنا من الناس ما جالي معاش".

\* \* \*

كان همّ الصدر يلبس كل خاطر فيه، وكانت شمس الجبال القروية؛ تغيب وتظهر، ثم تختفي وتبين، فتبدو الصخور و الأشجار القليلة الخضرة والأغنام؛ ظاهرة في العين وما هي بظاهرة.

وكانت السحابات في السماء المتغيرة؛ تتجمع على هيئة القطر المن  
المفحّم وتتراكم.. ثم اهتز القلب لقارعة مع أول صعقة برق ما لبث  
"عايض الصخري" أن ساق غنيماته نحو البيت خوفاً من الغرق،  
حينها صاح باللسان الحاد مستحثاً الغنم ممتلئاً بالحبور.

٨٩/٥/٣٠ — الدمام

## الخرج

لرائحة الخُرح الذي يمتلئ بمقاضي السوق، وتحمله الحمارة مع ثقل الشايب؛ مرة كل أسبوع.. طعم في الأنف منفرد لا يمكن لرائحة غيرها أن تكون مكانها. لعل في رائحة دكان القرية الصغير الوحيد؛ ما يذكر بها، لكنها ليست كمثليها. فقد كانت تبقى في الخُرح، وفي الأنف، وفي الصدر.

واليوم..

لك يا صبي الثامنة أو ما يزيد قليلاً، أن تجهز ثوبك والحذاء، وتُنشِب المشبك في حلقك، ليجمع بين انفراج فتحتي الرقبة، أو قل حافتي فتحة الثوب من وسط الصدر إلى الرقبة، ولتأخذ مكانك مردفاً على ظهر الحمارة خلف الشايب.

\* \* \*

كانت الحمارة تقربع بحوافرها في سجارة الطريق، وكانت الطريق الملتوية كالحبل المهنل؛ تبدو بعيدة وطويلة، وكان الصبي يمني نفسه لو يعرف نهايتها، فأين نهاية ينقطع عندها هذا الحبل البعيد؟! جاءت من أعلى الجبل، ومن سفوح كثيرة، وبلاد لا زراعة فيها، وقطعت نخيراً صغيراً فيه ذؤابات ماء مطحلبة، ونباتات الحبق الخضراء الغامقة، وصخور على الجانبين كبيرة وصغيرة ملساء كالبيض.



هناك أشجار كبيرة كالوحوش، وفي كل مسافة وأخرى، تقفز طيور "السمان"، و"القمرى"، وتطير فتأخذ معها البصر إلى أن تختفي أو تهبط على الأرض.

أما هو، فها إنه يهبط إلى السوق، كما لو أنه سيرى ما لا يراه إلا هو.

رأى رجالاً ونساءً، بعضهم على حميرهم، وبعضهم على الأقدام، بعضهم يلزم بيده زنبلاً صغيراً من سعف النخيل، وآخرون يمسكون بالعصا أو المشعاب. وكلما اقتربوا من السوق ترايدوا.

كانت المساحة المحدودة بالأشجار من طرفها، والجبل من الطرف الخلفي، تنبسط في واجهة البيوت المتداخلة البيضاء، والعارية الحجر. كانت تلك الأشجار المتقافزة قرب جذوع بعضها، تجنح بظلال تُربط تحتها الحمير.

تحت واحدة؛ ربط الشايب الحمار، أخذ عن ظهرها الخرج الفارغ، وخلفه مشى الصبي، كان يتبعه، وكانت حواس رأسه الصغير تنصرف مع كل الألوان والأصوات والروائح.

دخل الشايب دكاناً، وسلم على صاحبه، ومد صاحب الدكان إصبعين من يده، والتقط قطعتين ملونتين من الحلوى، فناولهما للصبي، ونطحت رائحة نادرة محببة أنف الصبي. كان الدكان لا يشبه دكان القرية الصغير، إلا في أشياء لا تقف عيناه عندها.. فهذه قد رآها، وتلك يعرف أنهم يسمونها بكذا، ويستخدمونها لكذا، أما

تلك الأشياء المصفوفة كالعرائس، وتلك التي كحب الرمان الكبير،  
والراكدة في الركن كالسهام المضيئة؛ فكلها جديدة على معرفته،  
ولا يدري لماذا يشتريها الناس.

\* \* \*

قال الشايب لصاحب الدكان؛ وهو يناوله الخرج، سيطوف بالسوق  
ويجيء ليضع حوائجه و.. خرج.

يا إله الأطفال والأسواق..

لماذا هذه الروائح المختلطة النادرة؛ لا تكون إلا في الخرج، أو في  
السوق؟!.

كان الناس يضحون في كل شبر، وتختلط في اليمين واليسار، وعلى  
الأرض نساء، ورجال يبيعون، ويتحدثون، وآخرون يرفعون  
أصواتهم ينادون إلى سلعهم.

صفاً أمام الصف، وقدامهم بضائعهم، وبينهم وبين بعض يتخطى  
المتسوقون، ويقضون مقاضيتهم.

الآن..

عرف من أين يجيء الشايب بالخوخ والرمان.. من هنا، من ذلك  
التل الصغير أمام ذلك الرجل المتربع.

ومن عند هذا الواقف أمام معاليق العذوق الحمراء.. يشتري الشايب  
البلح. أما ذلك القاعد وأمامه يديه المدهونتين بالسواد، أباريق واسعة

البطلون، وقريباً تكاد تنفجر بالمهل. فهو لا ريب يبيع القطران،  
فرائحته لا تفارق الأنف.

بقرب أوانيه المصفوفة، رجل هرم العينين واليدين، تمددت قدمه  
العصي و المشاعيب المهذبة.. يارب؛ أليس بينها مشعاب واحد  
صغير بطول ذراع الصبي؟.

رأى الصبي في السوق ما لم تره من قبل عيناه، ولا أذناه، ولا  
معارف الحس في رأسه، ولا صدره، فأينما يلتفت يرى شيئاً جديداً،  
أو يرى أشياء؛ يعرف لحظتها أنما تجيء من هنا، ولم تكن البضائع  
الملونة والمحاصيل والروائح، وطعم الحلوى المعسلة الذي أبي أن يحس  
من اللسان.. هي التي ملأت فيه كل استيعاب، بل إنه شاهد أناساً  
آخرين بألوان غير التي يعرفها، وأطوال مختلفة، وعيون ولحي قصيرة  
وطويلة.

وعندما درج الشايب إلى فسحة صغيرة، ليشترى "الريحان،  
والشار"، والليمون الحامض والحلو، بين يدي نساء كبيرات العمر  
وصغيرات، وقد وضعن جانبهن قفافاً صغيرة، تكاد تنفسر حوافها  
بورق أخضر ميبس من الحناء.. كورق السدر الجاف.. رأى الصبي  
مجمعاً يترع بأصوات الخلق والحلال، ففيه جمال وأبقار وحمير كثيرة،  
وقربها أغنام وماعز.

لقد رأى حتى الدجاج والبيض والبرسيم، حول ركب النساء  
القاعدات.

\* \* \*

قال الصبي للشايب، ولسانه يجف في فمه؛ إنه يريد أن يشرب فدعاه الشايب برفق لم يعتده إلى صنوبر قصير ملتو الرأس، يخرج من صفيحة تنك أسطوانية واقفة قرب باب مسجد أكبر من الذي في قريتهم، فشرب وغسل وجهه ويديه.

كان الشايب يجمع مقاضيه وحوائجه، ويحملها إلى ذلك الدكان الذي دخلاه أول مرة، وكان الصبي يحمل معه فوق ما يقدر عليه، ويمشي خلفه، فيراه مختلفاً عن كل هؤلاء الأوامم، بخطواته المسرولة العريضة، وقامته الشائخة بمعطفه البني، وخذائه الجلدية النظيفة، وثيابه المتناسقة البيضاء، وعقاله الذي يللم عمامته المجنحة فوق رأسه، أما عصاه الخيزران ذات الرأس المكور؛ فألها بنحافتها وطولها المعتدل، قل أن يشاهد شيئاً لها في أيدي الآخرين.

كان يقابل رجالاً كثيرين، فيسلم عليهم، ويتسّمون، وينفحون الصبي بكلمات مرحة ومازحة، وكان بعضهم يعطيه في يده شيئاً ما، فقد قعد بعد عودته من السوق؛ في البيت بين أخوته الصغار وبني وولد الجار، وأخرج تفاحة و موزتين، وثلاث قطع من الحلوى المغلفة، وما يملأ القبضة الكبيرة من النبق، وأعطته تلك التي تبيع الریحان والحناء؛ ليمونة صفراء كبيرة بطعم السكر.

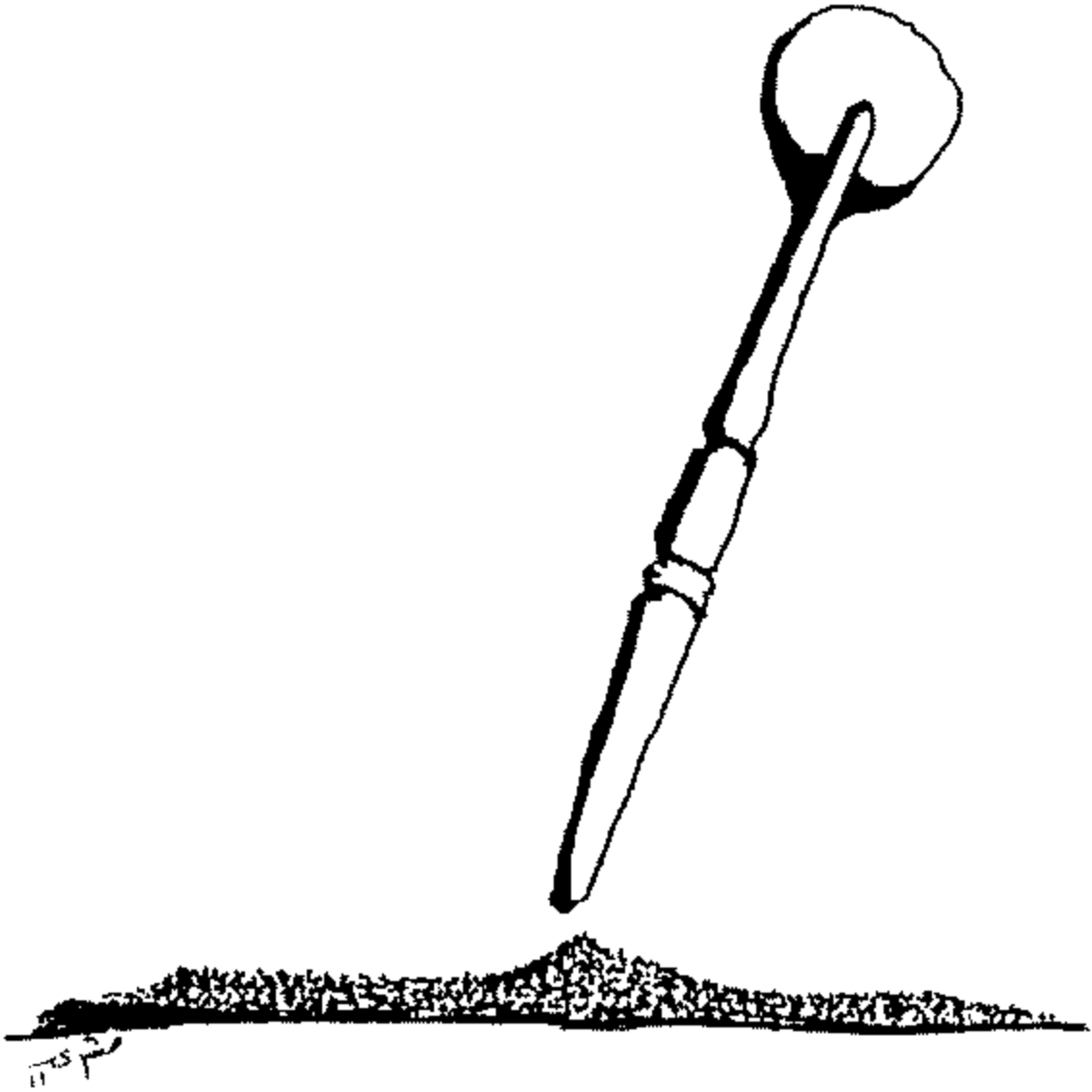
وراح يوزعها بين الجميع، كما يفعل الشايب وسط العيال، وغرق حتى آخر إمكانيات الوصف، لينقل لهم ما سمع وما رأى، وما سوف يبقى في رأسه وصدره إلى حيث لا يعلم.

بقي إلى الليل لم يأكل، فبعد أن صدر الشايب من السوق، وأخرج من الخرج - الذي لم تعد رائحته غريبة المصدر على فهم الصبي - ، وقسم قسمته العادلة بين أهل البيت، من الصغيرة والكبيرة.

وعدا خلع معطفه، وعلق إلى الجدار عقاله وعمامته، وأركن خيزرانتة - التي لا يجزؤ على التقاطها من تحدثه نفسه - ، وضعوا الغداء.

لم يتغد الصبي. ليس لأنه شبع بعينية وأذنيه وأنفه، بل لأنه بقي أياماً يشكو من وجع في البطن؛ وقت الظهيرة، وحيناً من السنين، وأحلاماً في النومات الهاجعة؛ حين يتذكر ساعة إذ أوشك الشايب أن يشد الخرج على ظهر الحمار، ليعودا إلى البيت، فرأى الناس يتجمعون حول ساحة ذلك المسجد الذي شرب من مائه ، وقد جاء رجال، قال عنهم الشايب إنهم عساكر ، وكان معهم رجل مكتوف اليدين، أقعدوه على عجيزته، و تقدم منه رجل ضخيم كالليل .

## الخطاريف



عندما عاد "حمود المرّوي" من السفر، مثلما يعود أبناء القوم في الصيف؛ وقتما يشتدّ بهم الحر في المدن.. حمل معه "شنطة" كبيرة من الصفيح المدهون وعلى واجهة غطائها؛ قفل نحاسي ثقيل بمفتاح يحفظه في الجيب.

وحين تجمعت عيون أهل البيت، في يديه اللتين انشغلتا بالحركة في محتويات الشنطة.. أخرج عمامة بيضاء مغلقة بالبلاستيك الشفاف، وعقالاً عريضاً بدلدول معدني كالقرش الجديد، وقال وهو يقدمه لأبيه:

- هذي.. هديتك، يا بوحمود.

أرسل يده في فتافيت بطن الشنطة، ورفعها ممسكة بشرشف مضغوط كالكتاب، وعلبة كالكف بها حبوب "الفينيك" لقتل العثة، ومدّ بها إلى العجوز اللاهية بالدعاء، والكلام الذي لم ينتبه إليه أحد، وقال:

- هديتك.. يا أم حمود.

وأعطى أخته الصبية الصامته، منديلاً أخضر، "جفجغ" في غلافه المختوم. أخرج طاقتين ملونتين، ومطرزتين بالقصب المكسّر، ووضعهما على رأسي أخويه، اللذين ملأا الحضرة بالصخب.

ثم، أعاد الغطاء، وأقفله بالقفل، ووضع مفتاحه في الجيب. أما قطعة القماش السوداء "القטיפيّة"، والشرشف الكبير الأبيض، ومنديل، وزجاجة عطر باريسية زرقاء، وهنداستين شيلة بلون الفحم، ودهان

كرمي مستدير.. فتلك أشياء تليق لأن تكون في اليد؛ وقتما يذهبون جميعاً إلى بيت العروس.

\* \* \*

بعدما وضع الأب ألفي ريال، وتحدث عن النصيب المرتقب، لم يتحدث "حمود" إلا إذا سئل عن المدينة وأخبارها، فيرد بكلام قليل، وكأنه يُعدّ الكلمات، فيفرك يديه في بطن بعضهما، وينظر في وجه أبيه، كأنما يستأذنه.

كانت "حسنه" في الداخل مع النساء القليلات.. تكتم الحركة، وتبذر كل ما يمكن أن تستحسنه قدام أم حمود وبناتها. وكانت أمها وعمتها يدفعنها بعيونهن، لتقدم القهوة والشاي وقليل القول، يعطلان الضحك أو اللفظ المشين.

قدمت أم حمود ما جاء به العريس من هدايا، وضعتها قدام "حسنه" شيئاً فشيئاً، وهي تقول "لبس العافية يا عروسنا".

\* \* \*

بعد ساعات من الليل، قام الجميع إلى دارهم. كان أبو حمود يعمل بناءً في الحجر، قضى نصف عمره في تهذيب الحجارة، ووضعها فوق المداميك، وقد ظهرت على يديه حراشف دقيقة قاسية، كست راحتيه بواجهة بيضاء متشققة. وهو لا يعرف إلا الحجر والمطرقة، ولا يجب أن يعانده في الأمر رأس صلب. وكان لا يقبل أن يرى الأشياء تخرج عن صفها، حتى إنك لترى



لحيته المهذبة.. مستقيمة الخراف، متلائمة مع شاربيه الملتقيين بجسدي الوجه، ومتصالحين إلى حد عجيب مع عينيه العسليتين النصف مغمضتين، وأنفه الذي تراخى بين وجنتيه الممهدتين لاستقبال سنوات ما بعد الخمسين.

وتلك صفة تحوز عليها عائلة "آل مروى" منذ أجيال، فهم يقولون إنهم لا يحرقون دمهم في هموم الدنيا، فابن آدم لا يحق له أن يحمل الدنيا على رأسه، والأرض أحمل بكل ثقل. وعليه فإن الأب يوصي ابنه، الذي يعمل دلالاً في حراج المدينة، بعدم حرق دمه، (فاليوم لك، وغداً عليك، والرزق من عند الله).

\* \* \*

في البيت الذي يسكنه "آل المروى"، والذي توجد به حجرتان، إحداهما كبيرة للجلوس واستقبال الضيف، وتناول الطعام على سفرة من حوص السعف؛ يتم نفضها وتعليقها في وتد على الجدار المواجه للداخل.

على لصق المجلس حجرة داخلية تصغر قليلاً، بها "مشبّ النار"، وأواني المطبخ، وأكياس الحَبّ هناك في الركن المقابل.. اقتطعت مساحة مربعة كصندوق الشاي، بألواح رقيقة، لها باب يقفل يتدلى كاللسان، وبدون نافذة.. للعروس القادمة، فُرشت بحصيرة جديدة؛ لا تزال تحافظ على ثنيتها كالورقة المبرومة، وعليها بساط مخطط

بالأزرق والأحمر من القطن، جاء به "حمود" من السفر. أما الصبيين وأختهما فكانوا ينامون في حجرة المجلس، وينام الأب والأم في الحجرة التي في ركنها منام العروس.

وقالت الأم لبكرها القادم على الزواج:

- "بكرة.. بتأخذك مني، هذا ما يبقى لي؛ بعد تربيتي.. هذا

حال الدنيا".

كان "حمود" يربت على كتفها ويقول:

- "لا، لا.. إنني الخير والبركة، يا أم حمود".

كان الصبيان يتحاذقان بطاقتيهما الجديدتين، ويحدثان صخباً يشوش على مسامع القاعدين، فيدعوهما "حمود"، ويجلجل في قفص شنطة الصفيح بمفتاحه الصغير، يحل صرة قمماش بحجم الرأس الصغير، ويملاً قبضته بـ "الحمص"، مثلما فرحا به يوم أن قدم من السفر.

وكان الأب قد هبط إلى الأسواق، منذ الفجر، ليشتري ثوراً "ملحماً" .. يذبح ليلة الزفاف، ويشتري حوائج ينسى بعضاً منها، فتفت العجوز في أذنيه كلاماً عاتياً (فهو لم يعد يتذكر وصاياها .. إنه بلا قلب). وستنشأ مبادلات سبائية، لا بد منها في مثل هذه

الأمور، فيرد عليها كما يقول:

"لا وجمع إلا وجمع الضروس، ولا هم إلا هم العروس".

\* \* \*

انقضى يومان، أنفقدتهما "آل مروى" في التجهيز، بل إنه حتى في صبيحة يوم الزفاف.. لم يجدوا وقتاً هنيئاً لتناول وجبتي الفال والغداء، فقد عنت الصبية بتنظيف الأواني الكثيرة، التي جمعوها من أهل القرية، والتي حملت بخطوط معوجة؛ أسماءهم على أفقيتها، تجمعت كلها في ركن الساحة النظيفة، حيث أقيمت خيمة من القلع، وأعد تحتها كانونٌ كبيرٌ، وآخر يصغر عنه بقليل، وفوقهما قدران كبيران نحاسيان، بحلقات جانبية ثقيلة.

صُنّت "مصايح الأتاريك" كالعرائس أمام أحد الأقرباء، تولى تنظيفها وتعبئتها بالجاز، وإبدال فتائلها المعطوبسة. وكانت تحمل أوشامها في أسافلها فهذا لفلان، وذاك لفلان.

كانت العجوز لا تفتأ تلبّي مطالب زوجها الكثيرة، وقد شمر عن ساعديه، وساقيه إلى الركبتين، ووقف مع العريس، ونفسر من القربي؛ تحت لوزة عالية أمام البيت، ليسلخوا جلد الثور، بعد أن مضت السكين الحادة في رقبة المترهلة كعمامة حاملة، حيث حار، وجاهد لفك القيود من قوائمه، و.. جَنِّبَ و خنخن و فأقا الدم المندفع من كَرَبته، التي ما لبث أن غار فيها الحدّ وتغلغل حتى النصاب.

تجمع صبيان كثيرون مع صبي "آل مروى" وقذفوا للحدات الحائمة فوق الساحة، بقطع صغيرة من اللحم المهمل، دقوا معها

شظايا الزجاج، وخطفتها الحدآت، فكانوا يتصايحون فرحين بأنها ستأكلها وتموت.

وكانت القطط التي لم يكن أحد يتوقع وفرقها.. تتصارع بشراسة، وتلغ من الدم الذاهب إلى السواد فوق التراب، وجاءت العجوز والصبية إلى مكان سلخ الثور، فحملتا الرأس، والقوائم والكرشة والأمعاء، في قفة ودخلتا بها.. لتنظفانها وتدعكانها بالماء. ثم..

\* \* \*

جاء أقارب "آل مروى" منذ الصباح، وحضرت أخت العريس المتروجة، من قرية بعيدة، ومعها أطفالها الستة، الذين لا تشك في أنهم ولدوا في سنة واحدة، وعجت الدار بالضجيج، ورمى الأب بكثير من عبارات الشتيمة على الأطفال، (فهم لا يدعون شيئاً في مكانه).

كان الغداء من الخبز واللحم المسلوق والمرق، على قدر الحضور، وانتشرت رائحة الدهن النافرة من درن الشحم واللحم النيئ المكوم في الصحن الكبيرة، فامتزجت بروائح الفرث والدم. قام اثنان بمهمة الطبخ، ودلقا كيساً ثقيلاً من الأرز الأمريكي في قدرين ضخمين، فكانت أبخرة الطبخ تجذب البطن الجائع واقتراب أفول الشمس الذي اقترب به مجيء العروس.

كانت العروس، وهي لا تبعد إلا بمسافة تشميتة العاطس، قد تربت في بيت أبيها المتوسط الحال، فهو إلى جانب زراعته وحلاله كالأخرين.. يفري جلود القرب ويرتق "حلوس" الحمير و"أخطمتها" و"خروجها"، ويتفحص حوافرها وأسنانها. وهو دقيق الملاحظة قليل الكلام، مهذب العبارة مع أهله والناس، حين يمشي لا تفوت عيناه السيور والخيوط، وقطع الجلود والمسامير الصغيرة والجليق.

لم يشتك أحد منه، ولا من عائلته الهادئة، فنشأت بنته ذات الأربعة عشر، نشأة هادئة وحجولة.

وعلى أي حال.. فقد قال الناس، إنه "ثوب، ورقعته منه".

\* \* \*

"حسنة" لم تألف بعد ورمتي الصدر المستحي، وجمدت كقطعة اللحم المدلاة أمام وصايا أمها وعمتها، اللتان حوتاهما بأرطال الكلام: (فالبت الحرّة هي تلك التي تستسلم لعريسها، وتبتلع صوتهما، وتظهر في صبيحة اليوم الأول كالذهبة النقيّة، فلا تدع للعين عتب، ولا للسان قول مشين، فيقولوا بنت فلان، كل النساء تزوجن صغيرات، وأنجن أطفالاً، وتعلمن كيف يتعاملن منذ ليلة الزفاف، مع أزواجهن).

وخلفما أريق الحناء على الكفين، وسرحت أذيال الرأس الطويلة السوداء وكحلت العينان الصفراوان الذكيان.. ثمضمضتا

بدمعهما الحامض وبالخوف والفرحة المكتومة، وأشياء أخرى لها طعم ولون الدم توجس وقعتها لا ريب.. ضربت الدفوف في أيدي النساء، واختلطت بالغطاريق، ومشين على أقدامهن، بعضهن يعنى: "يا لهللا لا له" خلف واحدة عرفت في القرية، بنظم الغناء بالقصيد، ومشى كالذيل الرفيع أطفال من الأولاد والبنات.

وحيث أن بيت "آل مروى" ليس ببعيد، إلا أن الزفة التي يقطع الماشي مساحتها في وقت لا يزيد عن الترحيب بالضيف، سيزفون عروسهم فيها مسافة بولغ في بطنها، كانوا يزحفون وكأنهم يتعلمون المشي، وظهرت العروس بوجهها المزداد بياضاً.. تحيط به "الشيلة" السوداء، معصوبة بمنديل؛ شد كالعقال، ونصع جميلاً في العين، كانت بثوب من القليفة، مزين بالنطريز، حتى بدت عيناها كبيرتان أكبر من حجمهما.

لم يكن على وجهها زينة أخرى غير الكحل، وأذناها تحببَان تحت "الشيلة".

وكان أغلى ما تتحلى به، وربما كان رصيماً من العون في الأيام السود.. حزام بعرض الإصبعين من الفضة يلزم وسطها، أما اليدين فتلزم معصميهما أساور من ظفار الكهرمان الأسود المنظوم، وحجلين فضيين، وخواتم لا تزيد عن الخمسة في الأصابع العشرة.

\* \* \*

في بيت العريس وقف رجال، يستقبلون الرجال، ويرحبون بهم، وأطلق في سقف السماء بندقية الصيد ثلاث طلقات.. لمح الواقفون والد "حمود" يدحش الرصاصات واحدة بعد طلقة سابقتها.

خرجت نساء من بيت "آل مروي" بالدفوف والغطاريف، ليستقبلن العروس، ويقدها مع الرفقة إلى الداخل.

وتناول الأولاد على قدر تحملهم مرتبة بسعة شخص عريض واحد، ولحاف بلون بحري زاه، وطشت كبير، و"طاستين"، وشنطة من الصفيح المدهون، وكيس طحين، و"عكّة" سمن بحجم الرضيع وإبريقي وضوء معدنيين، وقربة.

نجز والد العريس أولاداً كانوا يسقطون من أيديهم الحوائج الصغيرة، وتقدم فأخذها، ودعاهم إلى الداخل مع الضيوف، وكان يلتفت في كل اتجاه وهو يحرك قدميه، ويفرك يديه، ويقذف بصوته الذي يبدو كأنه لم يجرع الماء منذ أسبوع.. بل انتزع حلقة كله، فقد أصبح صباح اليوم التالي، وقد تغيرت معالمه، حتى أن السامع ليشك إن كان صوت أبو حمود.

كانت العجوز لا تفتأ كالنملة.. تدخل وتخرج و"تموص" بقدميها المتورمتين، والحافيتين من الانشغال، وفتحت قفل عليتها عشرات المرات، بل إنها في لحظة شددت فيها أعصابها.. ألقت بالمفتاح من

سلسلة صغيرة في رقبتها إلى زوجها ذي الصوت المبحوح،  
وقالت إنها لم تعد تقدر على تلبية مطالب فتافيته الكثيرة، وجاء  
العريس لشأن مهم، فوجدها على هذه الحال. فقبل رأسها،  
وأعاد إلى سلسلتها المفتاح. وكان الأب يتجرع كلاماً من  
الشتيمة، يجاهد لكي لا يخرج كالحزبي فوق رأسها، فقد رأى  
أشياء كثيرة لا تناسب حدته البالغة في ضبط الأمور، واختلطت  
ازعاجات الأولاد ببيكاء الأطفال، وبالضحج الذي كان يأتي  
متواصلاً من مكان النساء، وبأصوات الرجال، وهموم أخرى  
تغيب قليلاً وتعود كالغيوم على صدره. لقد كان بحاجة إلى  
كلمة مهدئة طيبة من زوجته، فإذا بها تمشم خياطه بتصرفها  
المنفعل.

تركته واقفاً مع العريس في الساحة، ودخلت تنود بقدميها  
المتورمين، فانشغلت مع زحمة النساء، واستلمت قربة جديدة  
مطوية، جاءت مع جهاز العروس، و.. فتحت للمرة ربما  
الخامسين؛ فقل عليتها، وألقت بها فوق أشياء مبعثرة.

\* \* \*

بعدها يقرب من الساعة، ويخلفها صلى الناس صلاة المغرب  
بقليل.. فرشت سفر حوص السعف الدائرية الكبيرة على  
الأرض، وحيث أن المجلس قد فاض بالضيوف.. فقد جعلوا فريقاً



منهم في الساحة، وكذلك الأولاد، وفوقهم المصابيح تفح وتنثر ضوءاً كما يقولون: "كما الظهيرة".

ووزعت صحون كبيرة من الأرز واللحم، عند الرجال والنساء، وكانت صحون النساء أقل فهن لا يأكلن مثلما يأكل الرجال. خلفما أكل الجميع صاحوا بصوت واحد: "كثر الله خيركم"، واستعد الناس للذهاب إلى بيوتهم، ففي صباح الغد سيجيئون لأكل الفال.

و.. عادت الزحمة والضجيج، وتعالى نداءات عالية متفرقة لأشخاص يدورون عن أولادهم، الذين وجدوا في هذه اللمة مكاناً ملائماً للعب، ونشبت مشادات حامية بين أولاد كبار وصغار، حول أحذية مفقودة، وبحت رجل مسن عن حدائه الجديد فما وجدته، واستعاض عنهما بأخرى أكبر من قدميه.

لقد كان هناك تحت الخيمة قرب النار والقذور الكبيرة، يأكل عشاءه مع ابنه العريس واثنين معهما، أما باله فكان خارج يده وفمه، وقام بيده اللامعة تحت الضوء بالدرن والدهسن، ليبتقط حجراً، ويقذف به على الكلاب المتناحرة في طرف الساحة، وكان خائفاً وهو يدور قرب النار من تقدم أطفال كانوا عند أمهاتهم في غرفة النساء.

بعد ساعة من العشاء، خلعت الدار والساحة، وبقيت المفارش مدموكة، والساحة الترايبية محشودة بمواطىء الأقدام والحركة.

وبقيت مشاجرات الققطط مع الكلاب تقطع الهدوء الذي يُسمع فيه أصوات بعض النساء الباقيات مع العروس وأمها، وقد شارك من كان معهن بعد العشاء؛ رقصة بـ"اللعب"، على ضرب الدفوف والغناء، وهن واقفات صفّاً واحداً على الجدار.

كانت العروس تقعد على كرسي من الخشب، كسوه بقماش مزهر، لا تتكلم ولم تأكل من العشاء إلا ما يملأ الفم، وعلى أي حال كان أكلها سيحِين متأخراً.. فقد عرف في مثل هذه الأمور، بأن المكلف بتوزيع العشاء في الصحن، قد اقتطع نصيباً في صحن متوسط، وقال هذه "لُزْمَة العروس" .. ستأكل منه مع العريس حينما يجتليان في عليتهما، بعدما ينام الكل.

وبعدما دخلت أم العروس المهمومة والمشغولة بدون شغل، وكما يقولون: "كما أم العروس.. فاضية مشغولة"، وهياتها للنوم مع عريسها، وبعد ما أوصتها للمرة العاشرة بكثير من الوصايا، وحرصت على إبلاغ "أم حمود" الرفق بعروسه الصغيرة.. خرجت لتضع جسدها المتعب ورأسها المورجع، إلى جانب العجوز.

كان "حمود" قد أنهك جسده كمضيف، حمل أشياء ثقيلة، وساعد الأب في إتمام الحفلة بوجه يرضي الجميع. فدخل إلى عروسه بقدمين ثقيلين، لكنهما نشيطين، وسمع على سطح البيت

وقع أقدام، فعرف أن بعض الفضوليين الذين ركبتهم العادة كما يقولون: "يتسمعون"، ولكن..

تذكر قول الناس: "اقطع رأس البس، من أول ليلة"، وتذكر وصية أمه العجوز في المعاملة اللينة مع هذه الصبية الصغيرة.

\* \* \*

أصبح الصبح، فكان صبح لم يسبق له شبيه في عين "حسنة"، فها هي الآن والتجمل الذي كان يتفصح بالحياء الطفولي، جانبي الأنف الدقيق؛ وفي العينين، قد أخذ يلتمس راياته الوردية والحمراء، ويخرج من باب جديد، تاركاً وراءه تلك الصبية العروس، مع بداية عمر جديد، ومفهوم للحياة جديد، و معاشرة لمخلوق آخر من صنف لم تعهده من قبل جديد. يقول عنها اللسان إنها "مرّة". تطلعت إلى الحناء في يديها وقدميها.. فكان يبدو لها بلون جديد زاه كدم الغزال، الذي يقولون عنه ولا تعرفه.

وامتدحت الأم بنتها مديحاً لا تصديق له، وكما يقولون: "ما بمدح العروس .. إلا أمها".

وعلى أي حال كان هذا الصباح..

فإن على العروس أن تصحب نساء الدار والقريبات، بقربتها المطوية الجديدة، إلى البئر منذ الفجر الأول، لإحضار الماء على ظهورهن، ويقعدن قرب القدور الكبيرة في الخيمة، لعجن

الطحين وتقطيعه إلى أقراص ثقيلة دائرية على قدر الكف، فـ  
"الدغائيس" المطبوخة بمرق اللحم، هي خير ما يقدم لمن يجئ من  
الناس، يباركون ويتناولون فطورهم، في المرق والسمن، وشيء  
قليل من اللحم، وبعدها يُصب لهم الشاي والقهوة.

بُسطت السُفر الدائرية الكبيرة، وحمل كل اثنين بينهما صحناً  
كبيرة، والتمَّ الناس، ووقف اثنان من الشباب، بمنشفتين بحومان  
بهما فوق رؤوس الأكلين لطرد الذباب، وبين وقت ووقت  
يحييان بطاسات الماء. وغص واحد، كان يكبر لقمته، فجاء  
الشاب المنقذ بطاسته، فتجرع منها حتى جعل من لقماته الكبيرة  
في معدته، تسبح في الماء، وهذا ما لم يكن يرغب فيه، فالماء  
يحرمه من الاستزادة. ليس فقط بسبب الماء، بل إن الجماعة  
يغسلونه بنظراتهم، فهو رجل كما يقولون: "لا يشبع ولا يقنع"  
ويجري وراء اللّمات والحفلات.

جمع أبو حمود مبلغاً طيباً قدمه المباركون من الرجال، وتعرّف  
جيداً على كل رجل بارك له، وعلى عدد الريالات التي قدمها،  
ففي غد الأيام.. يجب تقديم مثله، فيما إذا كان هناك عرس، أو  
ما يشابهه من الأفراح.

لم يحضر نفر من الجماعة، لم يغيبوا عن معرفته، ومع أنه دعا  
كل أهل القرية بالصوت الفصيح من مسجد الجمعة، إلا أن:  
"الغائب حجته معه كما يقول لسان القوم".

\* \* \*

ليس على بيت العريس، أن يقدم وجبة للغداء في كل أيام العرس الثلاثة، وليس عليه أن يعنى كثيراً بوجبات الفال في الصباحات.. بل يقدم كل واجب الضيافة في العشيات. وهذا هو اليوم الثاني بعد ليلة الزفاف، ومن بعد صلاة العصر، سيستمعون، ويقيمون رقصة "العرضة". كان لهم ذلك، جاء واحد ينقر بعصاته القصيرتين، طبلة الزير وحضر الشاعر فلان، ليقول كلاماً يمتدح فيه العائلتين وكرم الضيافة. انعقدت دائرة واسعة في ساحة عريضة قريبة من البيت، وحمل نفر غير قليل من الرجال بنادقهم، وتوسعت الدائرة بعد سماع الطبل. ورقص الأولاد في ذيل الصف الطويل الدائري، وخرجت النساء على الأسطح وفي النوافذ.

حوم الغبار من تحت الأقدام على ما فوق الرؤوس، وعلى الإيقاع المرتب تقافز رقاصان خفيفان في وسط الدائرة، دون ترديد مع الآخرين، فقفزا ونطاً عقالاها من على رأسيهما، ولوّحا في الفضاء بـ "سلات الجنابي" الخاطفة كالبرق.

جاء والد "حمود المروي" فنصح الشاعر بريالات في يده قدام الجميع، وأعطى الراقصين وقارع الطبل.

وبعد أن ثملت الأجساد على أقدامها من الرقص، تقاطروا مع غياب الشمس، على بيت العريس للعشاء، فكان لهم مثلما كان في الليلة الأولى، غير أن العدد قد زاد، فزادت الصحون. كانت حجرة النساء مع العروس، تطفخ بالغناء، وتقرع الأسماع بالدفوف، واحتشدت الأصوات الحادة يبكاء الأطفال، وروائح والحرارة، وشرب الجميع الشاي والقهوة.

خلفما قضى الرجال شأن بطونهم، قرع القارح طبلية الزير، وصفوا صفيين متواجهين، بلا سلاح، ولا شيء في الأيدي، ورقصوا رقصة "المسحباتي" على أبيات الشاعر المختصرة. ورقص العريس مثلما رقص في "العرضة".

أما الأب فكان يقعد لصق والد العروس، الذي كعادة كل والد عروس.. لم يحضر في الليلة الأولى، ولكن نصيبه من الأرز واللحم، قد وصله، وأكله على مضض، وقطرات من الماء الساخن بطعم الملح، تنضح من عينيه. أما الليلة فإنه قد حضر منذ الصباح، وأهدر طاقته في المساعدة وفتافيت الحركة التي لا تهدأ لقلب واحد مثله في هذا الأمر.

\* \* \*

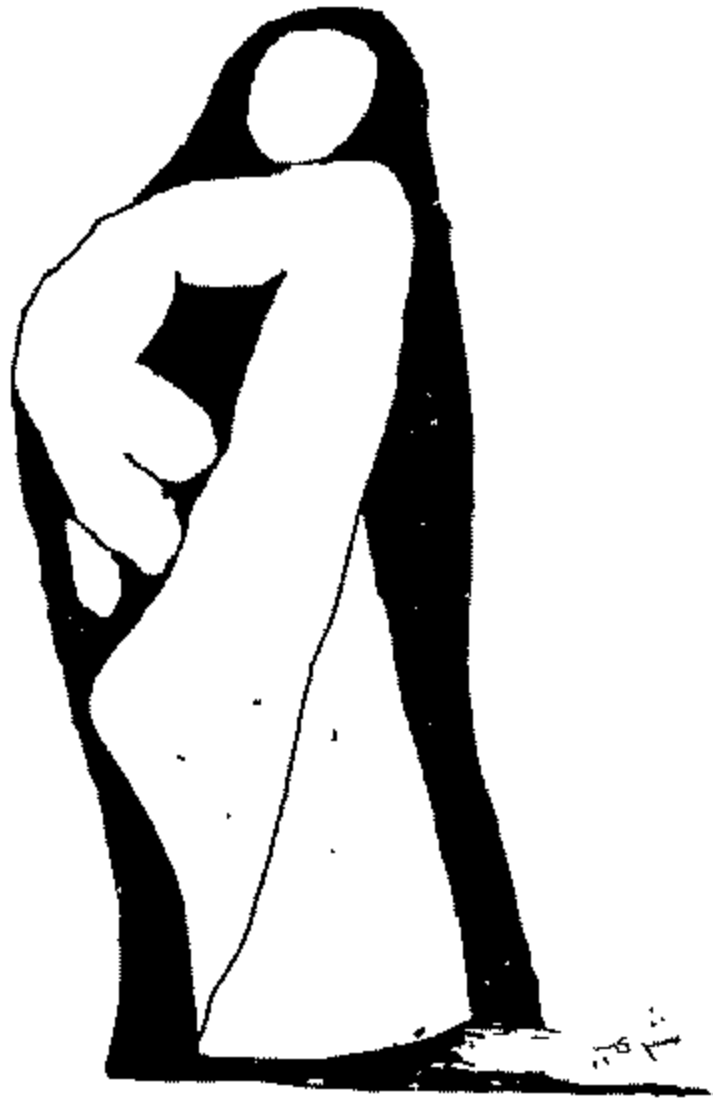
بقي حفل الزفاف ليلة الثالثة، وكان أبو حمود في الليلة الأخيرة قد هبط إلى سوق القرى، فاشترى أربعة خراف كبيرة، نالت رقابها السكين، فقال الناس إنه "بجمل" و"قام بالواجب".

\* \* \*

كانت "حسنة" لا تدعي زوجها باسمه، فتقول: "يا مخلوق"، إلى أن يمضي وقتٌ يخرج الحياء من كل جسمها فيقول لسانها اسمه. وكانت تقضي وقتاً من الليل في البكاء، ولا تشبع بطنها من الطعام، فيحفرها عمها أبو حمود على الصحن الذي يجمعهم في كل وجبة: "كلي يا بنتي"، ينظر إلى ابنه لعله يستطيع أن يقنعها بدعوة أبيه الطيبة لتأكل، فتزد: "الحمد لله"، وحين تخلو بنفسها مع الحنين وماء العين؛ في وقت من الليل، تحس بالجوع، ثم ما لبثت مع الأيام أن أصبحت من "آل مروى"..  
(فليبارك الله، وليمنح بها الصلاح والذرازي).

١٩٩٠/١٠/٦ م الدمام

مهرة





ها..ها.

أتضحكون مني يا أرذل الشامتين؟

أنا "مُهرة" ألا تعرفونني؟.

ربما حفثني الأيام فأنتكم عيونكم جارة دوركم، وبنيت أيامكم، و"حميلة" رحمكم.

ها.. أضحكوا، فقلبي ليس صغيراً كما قد تظنون، إنه لأكبر من بدني، وأطول من ليلة بلا عشاء، وأعرض من وقعة المصيبة المباغثة، في حباياه كل لحظات طفولتي وصباي وشبابي، وما أراكم تنفثون "أهاها" إلا مفرغة تلههون فيها بأرذل عمري، لكنني "مُهرة" تلك تعرفونني، وإن رغبت كنت أجمع في ذي ماضي.

\* \* \*

كان قلبها يقرع في حبيئة الضلوع، وكانت الضلوع كما يروون: "تنقص واحدة". وكان النبض العنيف يشاغب فتور الجسد الطريح على السرير؛ فماذا جرى بدنياك؛ يا غالية الأيام يا "مُهرة"؟، أمهرتك الأيام. زوجاً من أطراف الديار، فاخترته رغبة في الولد، قلت: شبت حياتي من الرمل، ونبئت "الصبيان" بين منابت شعر بناي، وحضيت خطوتي من مطاردة السرزق؛ لعلني بزواجي من ابن الخلال أجد المتكأ والولد.

أكلتني العيون، وطاردتني رغبات الرجال، و تقاطرت  
حول داري المطامع، فما لي لا أجبر هم نفسي بصوت رجل يملأ  
الدار، ويكسر النظرة الطموح؟.

دخول دارك الرجل ببدنه وصوته، وملاً عليك ما بين الجدار  
والجدار، وغضت العيون، ثم جاء الولد، فأنس البنات، وساح  
صراخه من عتبة الدار، وألجمته جوهر الرزق، ونقرت على مهده  
كل ما علمته من الدعاء وحفيظة البركات.

قلت:

ولد، يحفظ عليّ لجانحة القول، ويرد سود الليالي في الكبير،  
ويحمي من القوم "ساقاة" الأخوات.

\* \* \*

تزوجت البنات، ونما مع الأيام عود الولد، ورافقتة عند أول  
الأيام إلى باب المدرسة، تحمل الدفتر عنه، وتلزمه الوصية، وتمنحه  
قلبها ثم تعود.

جاءت الدنيا بيغتها فخطفت الزوج، وبقيت الدار خاوية إلا من  
معدتين، وحفيت "مُهرة" بين السدار والمزرعة، تفلح كما  
يفلحون، وتسقي كما يسقون، وتحصد كما البقية من القوم  
يفعلون.

تجمع التين بشوكه، وعلى حمارها القصيرة تراحم الشوارب،  
فتبيع، وتبتاع ما تحتاج وما نقضت في يوم غزلها، وهل قسوة  
الأيام أضرى من قلب لا يعرف الجمود؟!  
في الغد..

أو بعد الغد؛

يكبر قلب الجاهل، ويمد باليد المليئة، يردع الصعب، وينتزع  
الهمم..

ألا "فليباركك الله" يا ولدي.. تكبر كأعلى شجرة في السوادي،  
وتملاً بخضرتها عيني، فما أحلاك في العين، وما أملاك في القلب.

\* \* \*

ها.. ها.

أتضحكون مني يا أرذل الشامتين؟

أنا "مُهرة" ألا تعرفونني؟

لم أبع من أرضي فتراً، ولا مددت يدي لمتصدق، ولا فترت عن  
الزراعة موسماً.

أنا: تلك التي ليست يداها من شوك التين وقطف ثمار الشجر  
نائية، وما عرف الحناء في كفي مقام.

هجرتم ثمرة التراب، ونسيتم الزرع والحصاد، وخرجتم من بيت  
الحجر والطين إلى الأسمنت والحديد، وقتلتم: اركضي خلفنا يا  
"مُهرة"؛ لا في الفم ولا في الجيب.

قلت: ألحقكم، الولد يكبر، والقلب لا يفتر، أزرع واقلع وأبيع واشتري وألم الأبيض والأحمر ولا أبيع أرضاً أكرمتني.  
خرجت عيونكم من محاجرها، وقلتم من العجب: امرأة تراحم الشوارب تبني بيت الأسمت والحديد؟!  
ها.. ها.

أنا "مُهرة" ألا تعرفونني؟

بيت إلى قرب أرضي على قـدري وولدي داراً، وبيضتها كدوركـم، وأقفلتها بفتح صغير كما تفعلون.  
و...

في الغد...

أو بعد الغد؛

يكبر قلب الجاهل، ويمد باليد المليئة، يردع الصعب، وينتزع الهم، ومن طمع في أرض أكرمتني، أو إرث من بعدي، يمسح بقفا كفه ما تحت شاربه ويسكت.

\* \* \*

كانت "مُهرة" تفتح عينيها حتى يكاد يجيئها الحول، وترسل كل بصرهما إلى ما تحويه الغرفة الصامتة من أدوات قليلة، وضعت حولها كما يليق بمريض عاجز.

وكانت تسبل ذراعها على حافتي السرير، فتتهزه كأنما ترغب أن يندفع وهي ترى زائريها القليلين، يهدثون حشرتها على ولدها

الذي تاه مع الأولاد، فتعلم التدخين، وسهر الليل، والغياب عن  
الدرس، وترك قلب أمه في بيت الأسمنت والحديد، ينتظر الوقت  
الطويل، وهو لا يجيء، فترفع كفيها وتدعي رب العباد بدعاء  
يتنقم من زمان أفسد الناس خلف الأسمنت والحديد والمال،  
وأبعدهم عن لذة ثمرة الأرض، وحسن طعم جني المحصول، تقف  
وتضحك:

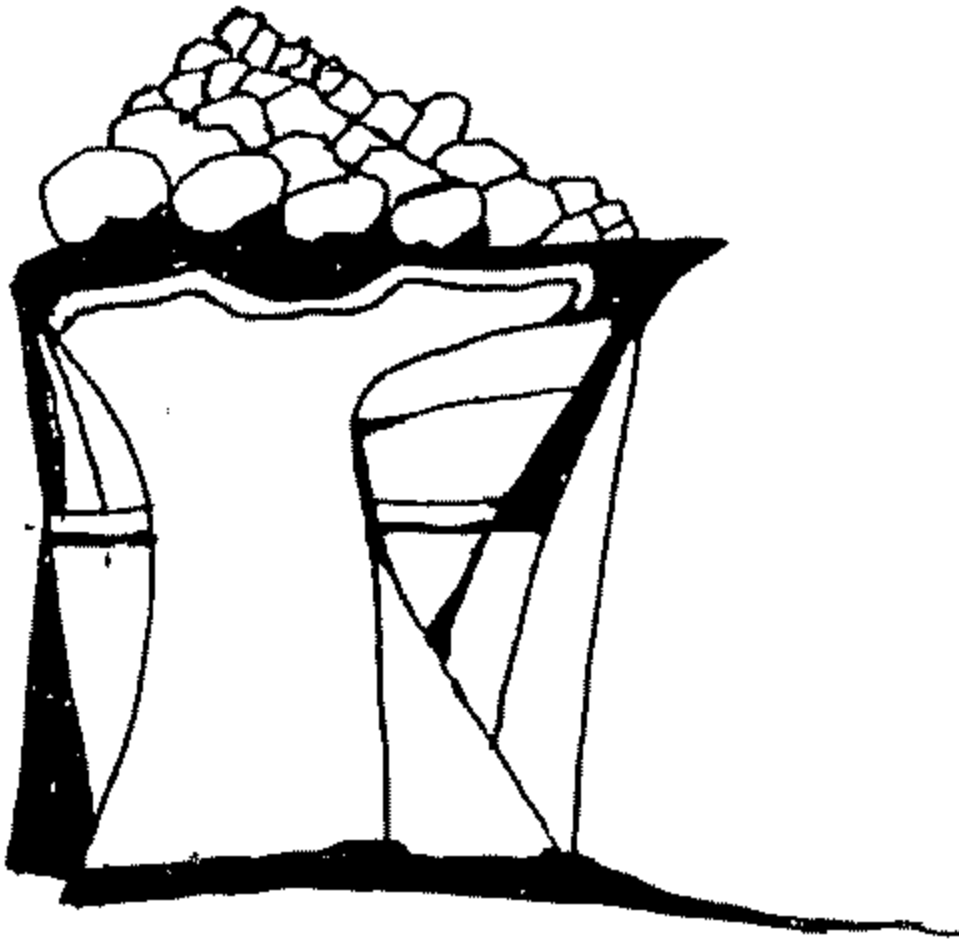
ها .. ها.

أتضحكون مني يا أرذل الشامتين؟.

أنا "مُهرة" ألا تعرفونني!؟

١٩٨٨/١١/٣ م — الدمام

## ثوب العيد



الطريق المتثني على حافة الوادي وصخور الجبل.. يُحمل في أحشائه المدهوكة بالحجارة والتراب وبصمات أظلاف المواشي مع بقايا تتسلق الأنوف من الروث.. تحمل صيباً يبعثر خطواته، فتصطك قدماء بكل قواهما في النعلين البلاستيكيين؛ بالحجارة الصغيرة، ويربض بشراسة غبار التراب على الأصابع.

\* \* \*

انحنى الصبي الماضي في الطريق فالتقط حجراً بحجم القبضة، وقذف به المنحدر.. فطار طائر صغير نحو الفرار، وتسرب حلم جميل مع الجناحين الهارين.

أما ذلك القماش الملفوف كالذراع الطرية في يده؛ فقد نالته مع هزة البدن وقت إذ رمى بالحجر؛ هزة أطاحته في القريب، حيث انحنى جذع الصبي مرة أخرى على قيد فينة، فالتقط القماش، وكان بلون "يفيح" في القلب الصغير سروراً، ويقابل انحضرار الشجر والأحلام والحلوى المغلفة وعيون القطط في الظلام.

العيد على مرمى أيام قليلة، وفرحة الصبي لا تليق بدون ثوب جديد، والأب اشترى هنداستين من البز الأخضر الذي يصلح لحركة البدن الصغير بين نبزو الأنف على الكُم، وحر قلم الجيب على الصدر.

وحيث إذ تلمس الصبي ريالين هامدين في جيب الصدر، من يد الأب.. نقلته النشوة المجنحة إلى العم "أبو صالح" خياط القرية من أقصاها إلى أقصاها.

\* \* \*

عندما ولج الصبي من باب الدار.. مدّ بلفافة القماش، و فرط ريالين مرهقين من كُثر التداول، وقال:

- "قبل العيد.. يا عم".

- "أبشر يا ولدي" .. وسأل عن أبيه.

كان العم "أبو صالح" يؤرجح موطن قدميه فوق لوح حديدي كبير الفتحات، يدير عجلة قهره بسير يلزم عجلة لماعة من عنقها.. تلمسها أصابع اليد اليمنى فتناسق مع ضغط القدمين المتأرجحتين، وتذهب عيناه بين مكان الإبرة، وموضع السيجارة الرابضة في المنفضة "الملزقة" على خشب طاولة مكنة الخياطة.

\* \* \*

نظر الصبي إلى المقص الكبير الأبيض، ممسكه الأسودين.. يخشخش في القماش الذي نال قياساته السريعة، وتمنى لو أنه يملك مثله ولو ساعة من نهار.

وألقي نظره مراراً إلى وجه العم "أبو صالح"، وهو ينفض رذاذاً خفيفاً من بين شذقيه، ويخرج كلمات ثقيلة ومدعوكية برائحة



السحائر، وقال كلاماً اعتيادياً عن العمر والمدرسة وأحوال الأب، وسأل:

- "قل لي.. إنت رجّال، وإلا رُجْرُجة؟".

احترار الصبي كيف يجيب، واستحى، وبالغ في التردد، وحرار في الاختيار، فالرجّال مقصد ما يريد كـل صبي أن يكون، والرُجْرُجة ربما كانت بقايا خوضه اللبن إن كان على ما يعتقد..  
ورد:

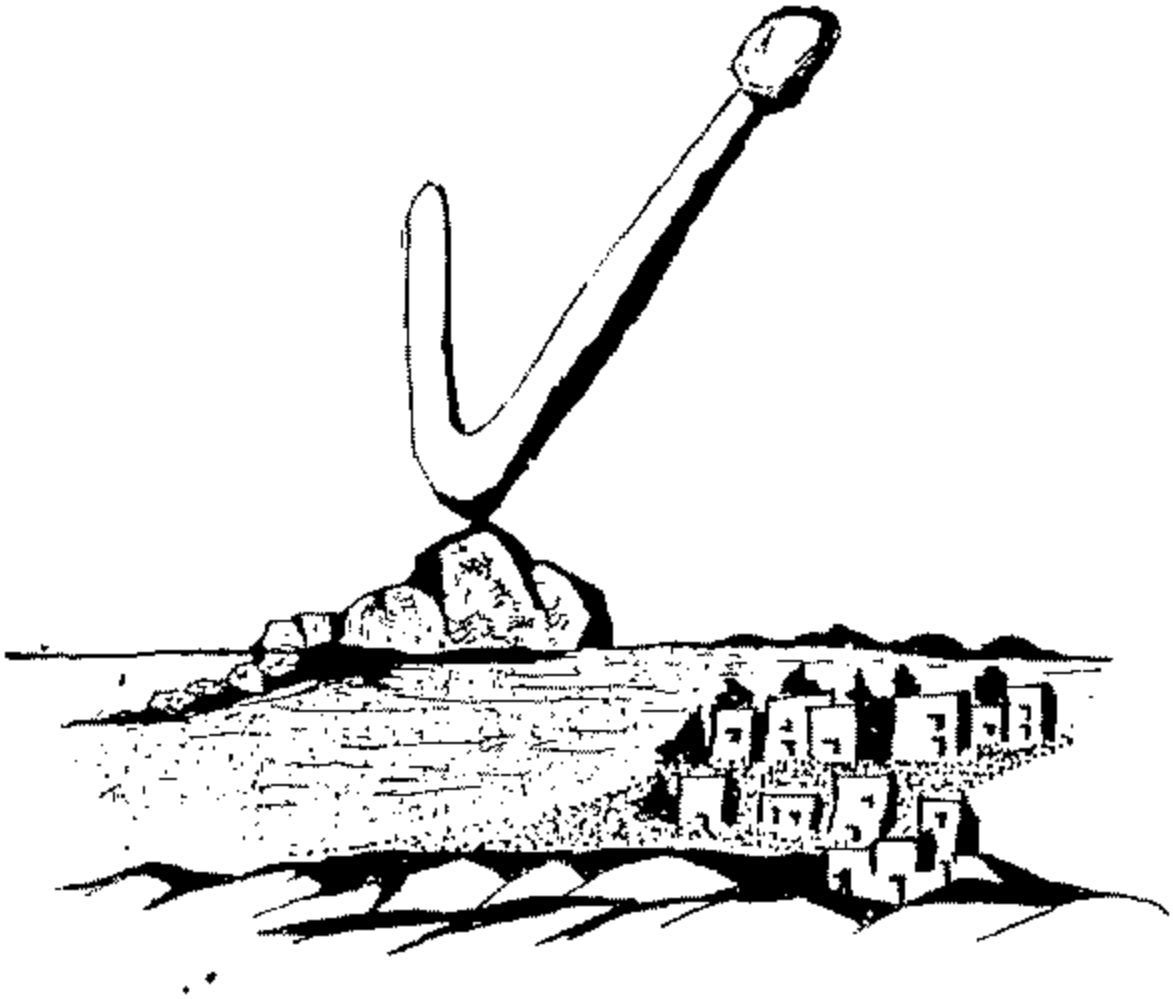
- "أنا رجّال".

- "بارك الله.. بارك الله".

دعا العم الخياط زوجته.. فجاءه صوتها الملبى من الداخل، وطلب منها شيئاً لم يين للصبي إلا بعد أن قبض عليه في يده الصغيرة، ومضى يدخل خطواته في أمعاء الطريق التي جاء منها، ويقذف بنوى التمرات المعدودات التي نالها دون توقع من زوجة العم "أبو صالح" الخياط.

كان العيد يزحف بجناحين أحضرين، وكانت فرحة الثوب الجديد تتأهب لتعقد أياماً في صدر الصبي.. أما ما عدا هذا فلتذهب الجبال الثقيلة بما حملت.

## الشامخ



.. وقيل على السنة المتحدثين في المجالس، وناقلات الكلام في قضاء الوقت والضحوات.. أن وطيء الأنسف "أبو عروان" يشرب السمن، بعد أن يغمس فيه خبزة الفطور، يأتي على ما تبقى، فتلتهمه بلاعمه ساخناً.

قال البعض: (هو ذا أبو فلان، ينقر مثل العنز فوق الصخور، ويحف في الأرض فلا تبدو له شكوى، والسبب.. شربه للسمن). وقال آخرون: (لا.. أنظروه؛ على طول الزمان لا يحيد ولا يميل، ولا يقدر على الحراك، من أثر شربه للسمن، يجمع في مفاصل ركبتيه فأقعده عن القيام).

ومع أن "أبو عروان"، كان يسمع بأذنيه، أو عن لسان زوجته، ما يوجع من كلام الناقلين والناقلات، والمضيفين والمضيفات إليه في "الغيل والقال"، إلا أنه كان يضحك من بعض المارة، ويعلق: "ليت عندي قدر السمن"، وتزيد حافظلة سره في هذا الأمر: "متى كنت يا مخلوق، تشرب السمن؟".

أما وإن بدنه لا يكشف هذه التهمة، وعياله، لا يتميزون عن عيال الآخرين في البناء؛ فرما دل ذلك على بهتان، وما أكثره عند من وجد في وقته الفراغ.

\* \* \*

"أبو عروان" يحب الضيف، ويحوشه في غير مناسبة إلى داره، فتشتكي "أم عروان" بالصوت السليط، وتصيح في وجهه:  
 "يا مخلوق.. أفقرتنا مع ضيوفك، وما عندك؛ لا يكفي عيالك".  
 بصوت خفيض، يرد في كل مرة:  
 "لنا رب كريم".

ولا زال القوم يدعونه بذى الأنف الوطئ! .  
 (غير أن "أبو عروان" أفضل في كثير من الأمور، من أي ذي أنف مستقيم منهم، وما وطأة الأنف فيه، إلا ضربة جاءت على استقامة الأنف من سوطه، فأوطأته، فسمي وطئ الأنف).  
 في القرى الجارة، يعرفونه بـ "طويل الذراع" ومحبه للضيف، و"فزعتة" عند الحاجة.

\* \* \*

على امتداد الساحة التي يلزم طرفها بناء من غرفتين صغيرتين، كانت تقف بكبرياء شجرة "حَمَاط" فارعة، وكانت أوراقها في الخريف تنحلي في توال مستمر إلى داخل الغرفتين والساحة، فتفيض الزوجة حين تكس، ثم تهبط الأوراق ثانية، وتربض صفراء جافة الأطراف في كل الأركان وأسفل الجدران، وكأنها وجدت مكاناً نظيفاً مهياً لنهايتها.

وإذا جاء الصيف أخضرت وأثمرت ولزمت ورقها، فكانت تغري النفس بثمرها الأسود الحلوى، (وما أشد أن تغري المارة، وأن

تغري بشدة الصبيان والبنات، الذي يملكون القدرة على التسلق والقفز، والهروب).

اليوم، منذ الصباح الصيفي الهادئ، فعلت (هذه الجامدة الحية) ما تفعله من إغراء بالمارة، وحدثت نفوس صبيان من الجيران ثلاثة بالقفز عليها، ففعلوا، وملأوا اليد والقم والجيب، وجاء على آخر الوقت "أبو عروان" حيث كانوا سينزلون عن "الحماطة" .. يهربون.

أمسك بأذانهم، وقرص قرصة المري المنتقم، ثم تطلع إليهم، ورأى أن هذا لم يقض على كل غليل قلبه، وقال في حالته: (مثلي، مثل غيري.. من يرضى الخطيئة على أرضه و زراعته؟).

لحقهم، وكان الدمع المالح مع طنين الوجع، يأخذ بهم كل ما أخذ . كانت عصا طرية تنز بجليتها، اشتلخها من الحماطة، وراح يلهب ظهور ومؤخرات الصبيان، فعادوا هرباً وألماً إلى دورهم، وقد تناثر من جيوبهم الحماط، وشكوا لأهاليهم ما جرى.. غضب الأهل وأقاموا ناراً يصعب قتل طيبها على ذي الأنف الوطيء، وقالوا: (والله لا نسكت عنها.. بغى يهلك أولادنا.. كيف هذا؟ يأخذهم بجهلهم، ويلهب جلودهم بالضرب!). قاموا حائقين إليه، هزوا باب الدار، ففتحت الزوجة، وقالوا بغضب: "هيا.. أخرجني ذاك الفأر".

لم يَخْتَفِ "أبو عروان" خرج، رَحَبَ، وقعد، ثم دعا "أهل البيت"  
طالباً القهوة.. كانوا صامتين، وتكلم أحدهم:  
بكل هدوء يا وطىء الأنف، تستقبلنا.

ابتسم وقال: تفضلوا، اقعدوا.. أنتم ضيوفى، اشربوا القهوة، ثم  
تكلموا.. إذا لي حق آخذة منكم، وإذا لكم حق، تأخذونه من  
عيني الاثنين.

نظر القوم إلى بعضهم، وذاب غضبهم بين كلامه وقهوته، و  
اتفق "أبو عروان" معهم، على أنه قد أخطأ، وبالغ في التريفة إلى  
الضرب حتى سلخ جلودهم، ولكنه بلغهم أن "البادي أظلم"،  
وأن أحدهم لن يرضى بيد تمتد إلى حقه من زرع أو حلال.  
قبل أن يتم الوفاق، بطلب منهم، على تكليفه بذبيحة، أو  
ذبيحتين من الغنم.. يحضرها كل رجال الجماعة، ويأكلونها في  
بيته.. كان قد سبقهم قائلاً:

الليلة.. الله يحييكم، بلغوا من لم يعلم، وتفضلوا جميعكم.

\* \* \*

بعد أن ترفقت الزوجة هذا الصباح، وبذلت كثيراً من العناية  
بقهوتها وفطورها، وكانت تلاطف في حديثها "أبو عروان"  
فتقول:

"مد ايديك يا أبو عروان..".

وتقيء حبات التمر القليلة، وتنفض الرماد عن كسرة الخبزة،  
المشتوفة من الحرف الدائري، فتتهز الأسورة الفضة ويصكع  
بعضها بعضاً.

قالت بصوت مستح:

"يا أبو عروان، كل الجيران، معهم "روادي"، ونحن.. يعني أنت  
ناقص، وإلا باقص؟، لا والله".

رفع رأسه في وجهها، وهزه على مهل نحو الأعلى والأسفل،  
وكان يعني الموافقة دون كلام، فاستبشرت.

لم تأت على الأسبوع لهايته، حتى كان صندوق صغير  
تحملة اليد الواحدة، ينفخ بأغان، وبأحاديث وأخبار، لا تعني  
أهل الدار في شيء، لكن لا بد من سماعها، (فهذا المؤمن يعني  
ويتكلم في كل شيء).

وحرصاً على سلامته، كان يرتع على حامل خشبي، بعيداً عن  
متناول اليد العابثة.

(وإذا كن الجارات، لا يصدقن فليملأن عيونهن الآن، وأذاهن).

\* \* \*

خصام كانت جذوره تضرب في البعد، وبقي في القلوب؛ ورثه  
عن الآباء والأجداد؛ جيل "أبو عروان" على أشده انبعث لسبب  
كما يقولون "ما يستحق الذكر"، فكان بين القرية، و جارة  
أخرى، على أثر آخر، تريض ضدّهما قبيلة بكاملها.

اجتمع الجماعة، واخرجوا جهد مشورتهم، واتفقوا على حَمِي  
الأمر ونار الانتقام.

قام "أبو عروان" وطلب من جمع قرينته، السماح له بالكلام،  
قالوا: هذا يضيع وقتنا، ويؤخرنا في الذود عن وجهنا.

وقائل فيهم قال: دعونا نسمع، لن نخسر.

تقدم "أبو عروان" وعلى لسانه كلمة تموج في الصدر منذ وقت  
بعيد، وقال:

(يا جماعة الخير، مالنا وللخصام مع جارتنا الفلانية، تعالوا نتصالح  
معهم، ونقف جميعنا في وجه خصمنا الكبير قبيلة بني فلان).

طاح على المجلس صمت ثقيل، وكأنما كانوا في غياب بعيد،  
قولوا: جئت بها والله، يا شامخ الأنف... لو تصارعنا مع جيراننا  
لتعبنا، وربما نخسر، ثم تأتي قبيلة بني فلان، وهم أكثر قوة  
ورجالاً، فنقع هزءاً على كل لسان في القرى والقبائل.

في يوم قريب تجمع وفد، وكان شامخ الأنف واحداً منهم،  
وقدموا على القرية الجارة، عرضوا عليهم الصلح، قالوا: تتشاور.  
بعد المشورة، قالوا: أنتم ضيوفنا، لا تروحون إلا بعد أن تأكلوا  
واجبكم من الضيافة عندنا، وكلنا يجمعنا وادي واحد، ومنافع  
كثيرة واحدة، فلتنذهب الجهالة إلى مكان غير مكاننا.



## مهران



.. (ولماذا طاح بك الزمان، ورمتك الوحدة في ركن السدار؟  
تتناهبك الهموم، وتتقاذفك الخواطر من باب إلى باب؟ والله، ما  
أنت ضعيف، ولا بذي مقام قاصر، ولا يسبقك إلى الزرع  
وأشغاله من الجماعة مُسابق).

بهذا الخاطر بصدر "مهران الأعمى"، تذكر كل ذكر لأحوال  
الدنيا كان قد مر عليه.

فها إنه ينازع ملامة ما فعله الزمان برجل "طويل ذراع"، وأقعده  
كفيفاً، بعينين منطفئتين، (وعليك أن تبرئ النفس من شوك  
الخواطر وتقتنع، وإذا ما حرّكت نغزة واهنة كهذه.. فجز النفس  
المبتلاة، ولا تمنحها كل ويل على البال واللسان).

كان "مهران الأعمى"، قد استدعى أحد الأحفاد، يحضر له إبريق  
الوضوء، ويأخذ بيده إلى طرف الساحة، يطير الشراب ويتوضأ؛  
فعانده الحفيد، وتعذر كاذباً بشغل الدراسة، وقسام إلى العصا  
الطويلة الصفراء، فأمسكها من رأسها المعقوف، وجعل يلعب بها  
ويطاول سقف الخشب.. بالحس أدرك الجد الكفيف كذبة  
الحفيد، وليست الأولى منه، فآثار الحزن والمرارة في  
دواخله، ونسي الأمر وجرى بخاطره خلف زمان قد مضى عليه  
عشرون عاماً أو يزيد.

\* \* \*

ألقى الكفيف على حضرة العيال وقت الضحى طلباً، فحساف الحفيد، ورأت زوجة الابن.. الواجب، وقالت الزوجة المشغولة بشغل وإدارة البيت: طيب.. يا مهران يوصلك الولد من الطريق الخلفية، خذ عصاتك، وعلى مهلك. قام الحفيد، وقسرب إلى قدمي الجد نعليه وعصاه.. أمسك بيده، وقال: "هيا يا جد". وجاء "مهران" يغرس عصاه ويقلعها عبر الطريق على مهل؛ إلى الجار.

قال الجار مُرحباً:

"حيا الله أبو عبد الرحيم".

وقعدا مقعداً لينا يليق بامتصاص الوقت إلى ساعة الظهر. كان إبريق الشاي الملقح بالحبق، قد جاء بعد "دلة" القهوة المعمرة بالجنسزيب والهليل، وكان الجار يهلك عدداً من السحائر، التي تتناقص رويداً من العلبة الأنيقة. وكان الحفيد قد جاء مرتين، يسأل عن جده إن كان يرغب في الرواح، فيجيب الجار: "عند أذان الظهر.. يا غلتي".

وكان الحفيد للمرة الثانية، يدخل على بغتة، فيقطع سالفة طويلة، كان قد بدأها الجد:

(ولما وصلنا على أرجلنا إلى نبع الماء، ألقينا بأبداننا فيه، وكان الماء يتفرغ فوقنا، بعضنا شرب؛ وحمد الله وقعد، وبعضنا شرب، وقعد يتقياً الدم.

وحلّفتنا، ما نمشي حتى نتزود بالماء، ورمى بعضنا بزاده من الطعام، وتزود بدلاً عنه بروح الحياة، وكانت قربة الماء ثقيلة.. لكن العطش، أرانا الموت).

كانت سوائف "مهران" كلها من الماضي قبل أن يتطفيئ النور من عينيه، ويبدو أن الجار، أحس بمتعة "مهران" عن ذلك الزمان، فجعل من نفسه كلها.. أذناً واحدة، تسمع ولا تعلق إلا بالقليل، (ألا فليؤخر الله ساعة الظهر.. حتى تكمل السالفة).

\* \* \*

حدّث نحاطره "مهران" وقت إذ مال على سريره، وأسند إلى حافظه عصاه الطويلة، وبعد عودته من زيارة الجار، وقد فاض صدره بالحياة، عندما سمع لغط العيال في الدار، وقال الصوت الفرخ في موجة هادئة: (ما أعجبك إنسان، كدت أكمم بجحتها ذات لحظة، وأوقع نفسي في كآبتها). جاءت الزوجة تسأله إن كان يرغب في القهوة قبل الغداء أو بعده، فاعتذر عن شربها باسمًا، وأكد أنه شربها، وشرب الشاي عند الجار، وهي بكثرتها، تقيمه من فوق الفراش ليظير الشراب في كل قليل من الوقت.

\* \* \*

النهار مكسٍ بضوء صيفي، والصدور بعد نتاج محاصيل الحنطة؛  
مُبَهَّجَةً، وليس في القوم هذه الأيام، من ينشغل بشاغلة تسأخذه  
عن الراحة حتى تسقط أول أمطار الوسمية، فينهض كل إلى أمره.

نادى مناد من طرف الساحة:

"يا أهل البيت.. يا بو عبد الرحيم.."

وأجاب من الداخل بلسان المرَّحِب:

"أهله الله.. تفضل."

وكان "مهران" المرَّحِب، لا يشك في هذا الصوت الأليف، السذي  
يزوره على أحيان من الغفلات، في عصاري الأيام: "مسعود"..  
(فحيا الله الضيف المفاجئ، وحيا الله أية رجل بعده تخطو في  
هذا العصر السعيد).

مد "مسعود" يمينه، وسأله عن الأحوال والعيال، وكذا، رد  
"مهران" بـ "بخير" وسأله في نظام يعرفه الجميع عن أهل الدار  
والحال.

وقال "مسعود" إن السماء صافية، والشمس صاحبة، ولا أثر  
للبراد، فرد "مهران" بأنها أيام القيظ، وراح يعدد على أصابعه  
الليلة القصيرة؛ الأيام التاليات، وحساب النجوم.

قبل أن يوحس ملل الحديث في أوله؛ كانت الزوجة تدخل و بين  
يديها إبريق شاي، وثلاثة فناجين زجاجية، وتقعّد متربعة،

لتصيه في الفناجين، وتعم السؤال عن عيال "مسعود" وزوجته،  
فيحييها: "بخير، الله يسلمك".

لوى "مسعود" واجهة الحديث، وراح يشكو لصاحبه، عن تغير  
الأحوال، واختلاط صافي الأمور بغشها، وكيف أن كبار  
الناس، مثلهم مثل بيوت الهاتف في شوارع المدن.. لا تتكلم حتى  
تضع في أفواهها القطع النقدية، وراح يشرح لـ "مهران" كيف  
تعمل هذه الصناديق، وكيف تبلغ النقود عند حاجة من يتكلم  
فيها إلى مكان بعيد.

عجب "مهران" قليلاً، وأكد لـ "مسعود" .. أنه آخر الزمان،  
وعلى الله، فليتوكل لازماً بعروته الوثقى المتوكلون.  
وكان "مسعود" يندف صدره برؤوس أصابعه، يغمض عينيه،  
ويكرر:

كبارهم.. لا يسرون أمراً لأحد.. حتى يلعون، مثل صندوق  
الهاتف.

\* \* \*

"يا ولدي.. حماك الله، أنا شايب، وسلاحي كما مخاظة الطفل  
السفيه".

هكذا رد "مسعود" على حفيد "مهران"، حينما جعل يمازحه،  
ويطرح عليه الزواج من تلك التي "خذها ذراع"، وكان يعني

ملاطفاً؛ الحمارة، ولم يكن الحفيد، ليدرك مغزى العم "مسعود"، لكنه قال دون علم وفي نخجل: "لا.. تزوجها أنت".  
 تدخل "مهران" بمزحة أغلظ، وكان حكيماً في هذه الشؤون، فقال للحفيد "شوف يا غلتي.. روح لجدتك.. قل لها، تسوي لنا قهوة، وقل لها، جدي يقول.. في قفا المندوب خشبة".  
 ضحك "مسعود" وأعاد آخر ما قاله "مهران" مبتسماً، قام الحفيد وهو يحاذر لسانه، أن هناك قولاً، لم يدركه.. فيه مزحة عليه.  
 وعلى أي حال من الأحوال، فقد نازع الحفيد أحوالاً مختلطة بالرضى، وبغير الرضى، وعارك خطواته، ثم أندفع إلى جدته في الحجرة الداخلية، وبينما هو يقفز كقطعة؛ وهذا ما كان يحاول تمثيله.. اعترضت قدمه بسلك المدياع الممدود خلف السرير، وبلا أدنى ممانعة مال في انحناء مشدودة، وكاد في تعثره أن يسقط على وجهه، فقام العم "مسعود"، وأمسك من طرف ثوب الحفيد وهو يردد "اسم الله عليك.. اسم الله عليك". ومن ارتطامه المدياع بواجهة الحائط؛ كانت قد تركت لسان الجسد على هيئة هذا السؤال:

"خير.. خير، وش جرى؟".

ويجيب "مسعود" عن الحفيد الذي احتقن وجهه بالنخجل:

"حصل خير.. الرادي"، طاح".

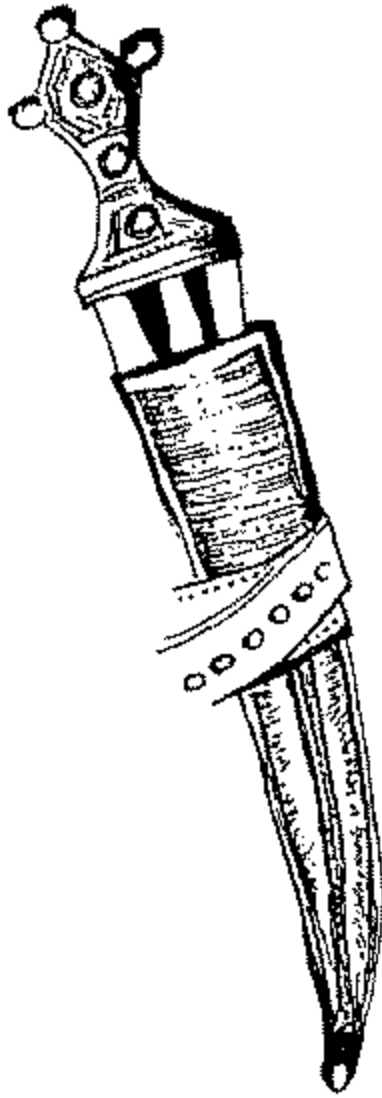
حينما كان "مسعود" منشغلاً بإعادة المذياع، وأسلاكه إلى مكانها، على الصندوق الخشبي، قرب رأس "مهران"، كانت الزوجة تدخل بـ"دلة" القهوة وقناجينها، ومعها صحن صغير على سطحه الجوف تمرات.

كان "مهران" يأخذ دون كلام؛ الفنجان من زوجته، وتمتد يده إلى مفتاح الصوت في الراديو، ليطمئن على صحته، فيرتج البيت بالصوت العالي: "هنا لندن" ..

الدمام - ١٩٨٩م



## قِطَاعُ الْجِنَابِي



اهترأ وجه التراب من ضرب المسحاة، و سال العرق حاراً  
كذوب المعدن من جبين "أبو معجب" فأقام انحناءة ظلـهـره إلى  
الأمام، وأهمل عن عروة الحديدة قبضته اليسرى، وزفر زفرة  
تتلاءم مع طوله القصير، وقال:

"ازفر وفي قلبي كما قطع الجنابي".

وحيثما جاءت الزفرة منعمة ممطوطة؛ كان أصغر الأصابع في  
القدم الثابتة ينز دماً، وكان الدم القاني ينثال لزجاً على هيئـة  
القطران، فينفرد قليلاً على التراب الذي أبى أن يمتص حمـرته.

وتطلع "أبو معجب" بنهاة من يعرف كيف يقيس ضربة  
المسحاة، وكمن يالف مثل هذا الوجع الدامي؛ أهمل عن اليمسني  
كامل العروة، وقعد.

ملاً الكف بالمدّر المندي، وحناه على مهل فوق مكان الجرح،  
وحدث نحاطره (أن البيت قريب، وبتقطعة من قماش مع  
مسحوق الشاي ستمل ما انقطع. أما وإن الحذاء "البلاستيكية"  
الرقيقة لا تمنع شوكاً ولا "حفى"، فليغس الله عن لدونتها،  
وليلبسها أهل الأقدام الطرية هذه الأيام).

تحسس موضع الحزام من الوسط، وفاح رضى قصير أنه لا زال  
مشدوداً، ونثر بصر العينين إلى ما فوق الكعبين، فاطمأن إلى نخلو  
طرف الثوب من الدم.

كانت الشمس تجمع سيلانها الأصفر نحو الغروب، وكان الغروب يجر مع نهاياته الحوافر والأظلاف وشقشقات الدجاج في الساحات، وكانت الآذان الفاطنة تقتنص من غير حلس مزاليج الأبواب على المواشي.

حين دخل "أبو معجب" ساحة البيت، رأى حمارته الرمادية واقفة كالصخرة، تطرد بذيلها المشعر القصير عناد الذباب؛ فآلمه هذا الإهمال، ورتب كلمتين ثقيلتين جاءتا من فمه إلى مسمعي "أم معجب"، وقالت على حب ومضض:

- "جئت تستريح، وإلا جئت "تتخزّي؟"

وقال "أبو معجب" على حب من غير مضض.

"هيا .. تعالي، اربطي الحمارة في مراحها".

فإن كان هو لم يغسل قدمه المصابة بالماء الفاتر، ويتوضأ لصلاة المغرب، فهي "بلا كلام" لم تترك الحمارة في ذيل أعمالها؛ إلا من الانشغال، ولم يكن هذا يخاف على "أبو معجب" .. فسكت لسانه، و"توننت" ببعض ما في حلقها؛ ثم سكت..

وكان الطفل الذي عجن كفه الصغيرة فوق أنفه من قرص الذباب؛ يمدّ صوته، ويخرج مع أبنخة تحته، فيلصق بأنف الداخل. ورأت "أم معجب" أن تعطي قفاها للرضيع، ووجهها لأبيه، فهذا كما تونون في خاطرهما: "مقدور عليه"، أما الكبير فقد جاء مرهقاً من الوادي، ولا قدرة على..

\* \* \*

وقتما كانت "أم معجب" تذر بطحين الشاي الأسود على الإصبع المدمى، كان صاحب الجرح يحلُّ عن الوسط الحزام، ويقاهر الزفرة المغناة، وكانت لمة الخبزة واللبن مع الأولاد الثلاثة، تذهب مع "أم معجب" بكل مكذور، وكان الرضيع قد حبا كالهداة بعد الطلقة، وكان الإصبع الملفوف يتشرب في بطاء ما تحت اللقافة، وكانت الحمارة قد ارتعت في معلقها، وكان الليل في الساحة يستوعب كل هسيس..

تدفق خاطر "أبو معجب" وسرح في الأيام المقبلة، فرأى "معجب" وأخاه، وقد تزوجا، وجاء الشقاق بين زوجتيهما وأمهما، فانتبذ كل منهما مكاناً بعيداً عن البيت، وتفرد كل بزوجه وعياله.

ردع وساوس الخاطر، وزفر بغناء خافت:

"ازفر وفي قلبي كما قطع الجنابي".

سألت الزوجة؛ إن كان يحس من أصبعه الوجع، فما رد.

وسألت إن كان يرغب في فنجان قهوة بعد العشاء، فرد: القهوة تفسد، طعم اللبن.

وقالت بالصوت الخافت:

"الله بنا وبك يا مخلوق".

ذهبت تموص بين أوانيها، وتدندن بقصيدة مهترنة عن لا شيء  
يمكن لـ "أبو معجب" أن يلتقطه من معانيها، إلا أن عذوبة  
نهايتها كانت طيبة في الأذن.

\* \* \*

خَرَّخَرَ الماءُ في المسِيالِ، وتسرب عبر فَلَجٍ صغير نحو مزرعته،  
وسقى النبات الأخضر، فنى في العين ونمى في القلب، وحصل  
وقت الحصاد، وحين تلفت المزارع إلى أهل بيته؛ لم تلحظ عينه  
من يساعد.

الولد تزوج، وشغلته أمور الزوجة والعيال.

وأم معجب تقول:

"أشقيتنا بزراعتك.. الخير في الدراهم، والناس هجروا بلادهم".

وقلبه يقول:

يا "أبو معجب" أرضك.. أعاشتك، وأعاشت أجيالاً قبلك.

كان "معجب" و أخوه عمران كالطلقة بسيارتهما من الطريق  
الإسفلي، ويعرضان عليه الركوب، أو حمل ما على كتفه  
فيرفض، ويرفع يده عن رضى مشيراً بالثناء.

وعندما كان جوابه:

(استحي أطلب من أولادي الريال، وأنا لي يمدان تعمالان،

ورجلان تمشيان).

كان الناس المتندرين يسألونه:

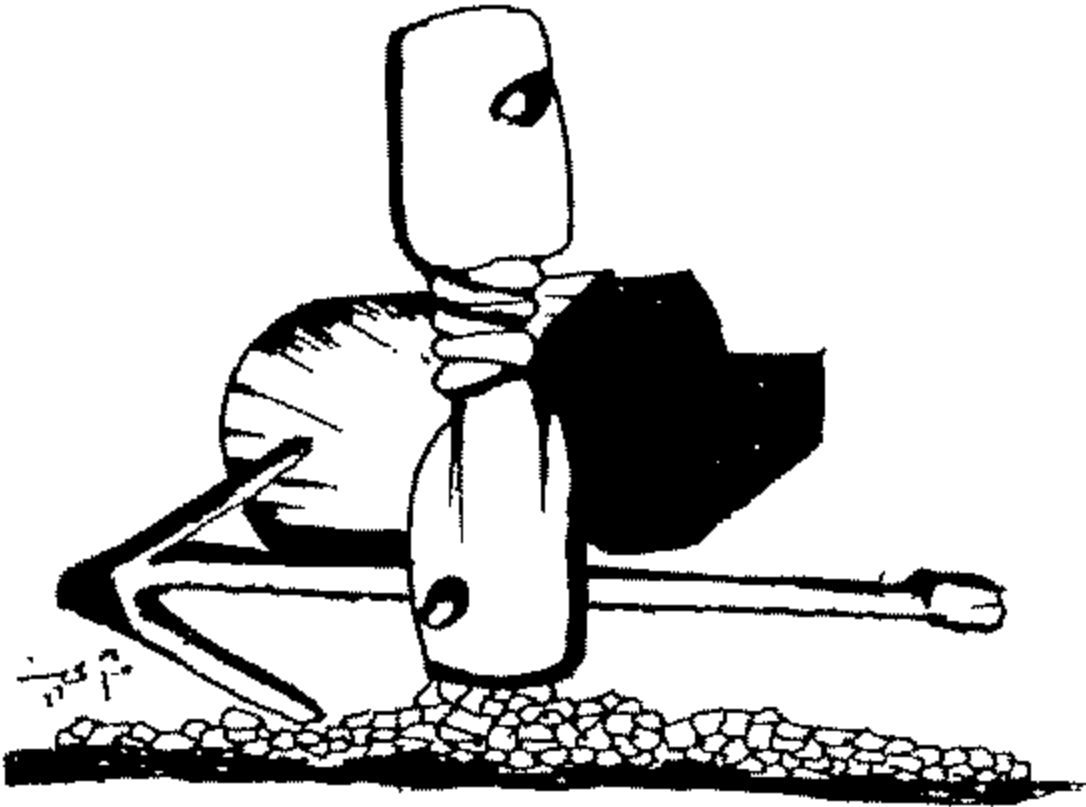
أولادك موظفون، وأنت لا تزال ترزع.. ما تستريح؟!.

يزفر بغناء مكتوم:

"أزفر وفي قلبي كما قطع الجنابي".

١٩٨٩/٥/٢٦ — الدمام

## الاستسقاء



اندلقت من عينيه نظرة حاسرة إلى حقل القمح، وقد تطاول  
 بالسنابل كالشهب. ثم صعد النظرة إلى سقف بعيد من الغمام..  
 نحو المشرق الذي ولد شمس الصباح منذ ما قبل الظهيرة، وقال:  
 (هذا نحن ننقي الأرض من الغناء والحصى، ونبذر "ذرونا"، ونحطّ  
 بالمحاريث ونرعى باليد واللسان والقلب بذراً بذرنا، ونحجّ حوافل  
 الغيم المقتم كمثلك فتلقي بثار البرد على كل سنبلة تسنبلت  
 بالحبّ المسهم، فيغدو في حضيض الأرض.. تأكله لاقطات النمل  
 والطير، فلا تبقى ولا تذر).

فلما فرغ "ابن ركة" من هذا الهسيس في الخاطر؛ لمع في السماء  
 برق، وصعقت ملء الآذان صواعق قصيرة، ونضحت على الأرض  
 أول أخبار البرد.. فصاح كما يصيح بالصوت المرتفع كل سامع في  
 القرية لهازج السماء: "يا كريم"، وبقي يجرجر خاطراً في الصدر  
 محملاً بالغضب والحسرة و الويح المرتقب.

وحيث أن الموسم قد أدلق ما يفيض به الزرع والضرع، وملاً  
 بالرضى كل صدر، وهنا كل عين.. فما بال الغمامات المذيلة بأخر  
 الأمطار.. تأتي كل ثمر الزرع الناضج فتبيد اكتماله، وتنصب التسف  
 على أذرع الأشجار المورقة المثمرة بتاجها.. فيهلها عند الجدوع!؟

\* \* \*

صاح بأهله..؛ أن يُدخِلوا إلى الدار الحلال، وكل ما يُخساف من  
 حصب السماء عليه.. ففعلوا؛ وفعل معهم تحت ثمار تلجى



كالزجاج الثقيل.. نقياً، صافياً كعيون البقر، قاسياً، لارتطاماته على صدغ الرأس وما تحت الضلوع وجع لا تمحوه الغضبة ولا الشهقة، ولا ما يجمع بين الكفين المنسطين لرجوة الدعاء.

فالآن.. لن يقف هذا السماوي القاسي، حتى ينفق كل خزينة له في الغمام؛ على رأس كل مثمر ناشج يرتع على الخضرة النابتة والمتسيلة ألا.. (فليتول الله بفضل رحمته على عبد "كابن ركية"، وعباد في القوم ليسوا بقليل.. أفنوا جهد عنايتهم في الزراعة، وقضوا في انتظار ثمره شهوراً حتى يحين القطاف.. ويبقى ببرد الغمامات قاصداً متعمداً.. ليواسيه بالأرض كالقاع الصفصف).

فلما طوى "ابن ركية" حبال المرارة على طول الموسم، واستعوض الله فيما ذهب من السنابل ضحية للبرد، وذهب من ذهب في استعداد جديد.. بقي وقتاً مع الناس ينتظرون مطر الموسم الجديد، واحمضت أكبادهم مع البذور المدفونة تحت مدر الأرض؛ فأبطأت الغمامات وتأخرت عن سوقها الرياح، واحترقت الشمس؛ تقطر ضوءها وحرارة لها من الشروق إلى الغروب، وضحكت خوافتها الضلوع من عجب الأمور وقال "ابن ركية" في غُدرة الظلام:

(أواه.. بالأمس كنا نستعيد برب الأنواء، من برد يهلك الأخضر واليابس، واليوم نستعيد برب الدهر من موسم لا تُبلل في قحطه ناشفة).

أسر إلى زوجته أن تقتصد حين تقبض بالكف حفنة الطحين، وزادها بالوصية؛ إن البطون تعتاد نفوس أصحابهما.. فإن عودها على القضاض غدت واسعة لا تشبع، وإن عودها على الوفارة والتدبير.. تعودت على ما عودها عليه.

أومات بالطاعة والصبر إليه الزوجة، وأغمضت عينيها على ذراري بطنها الأربعة، وكبيرهم لا يكاد يبلغ الوادي وحيداً، وهي في بالغ الحاجة إلى معين في تعب الأيام التي لم تكن من حضور تعبها وشقائها.

تدفقت الأيام في أذيال الليالي، وشحبت مكانم المؤونة الصغيرة، وبلغ سعر "رُبع" الحنطة بتلك "الروية". وكان..

(ما بك يا ابنة فلان؛ وكأنك عدمت الحيلة وقلة الجهد وخطوة البصيرة؟، أليس في البئر ماء؟ وإلى قرب البئر منبت طيب من الأرض فيه البقل وما يصلح من الخضار للأدم والأكل؟، وقربه ما يشبع بقرتين حلوبتين من البرسيم.. "عليك الحوطة من الله!"، جُزّي البرسيم الأخضر النابت واطبخيه مع قليل الطحين، وانتقي اللائق من الخضار واسكتي فراغ المعدة، وجوع الزوج والذراري.. يوم، ويومان، وشهر، وآخر.. يغير الله الحالة إلى خير حال.. و كل الناس مثلك يفعلون.. فلتفعلي.. فلتفعلي من بكرة الغد).

\* \* \*

عندما قعد "ابن ركية" مع ذراريه قرب ركية زوجته؛ ينفث دحان سحائره التي وجد لها وقتاً فائضاً.. يلفها من "التمباك" الأخضر ويهدبها؛ وفي حضرة الشاي المعتق بورق "الحبق" .. نفضت غبطة وامضة نبض صدره، فألقى بعقب تلك الملفوفة البيضاء على طرف من مقعده، وبقيت تُناسِل على بطء ذؤابة رقيقة من دحانها الأزرق.. جائب عينيه النظر إليها؛ وحوّلها بأسرع من بصرهما إلى زوجته، وقد بلغت كعادتها في وصف أمور العشاء بعد همّ الغداء وفتافيت البيت والذراري، وماذا ستكسب في الغد من أكلٍ للبطون الصغيرة وكيف أهما تخاف على دجاجاتها في البرد المتشابب هذا الشتاء؛ من اعتداء الكلاب، ودحرجت كلاماً آخر عن أشياء لم تكن لتعني الزوج الذي استمع إلى كل هاربة من قولها، وقال:

كأنك تحملين جبل الوادي على رأسك خوفاً على دجاجاتك، وكأنك نسيت ما يتوعدهن.. آذينا، وقذرن سكتنا، ولو صحّ لمن لنهين ما في أيدي أطفالنا.. وتأتي في غيب رعايتك ضالة الكلاب فتهدأ بها، ونحن بالندم يندب فينا الصدر والجبين.. اسمعي يا ابنة فلان.. إن كنتِ في عين عقلك؛ فهاتي السكين نحتها على رقبة إحداهن.. لنا ولأطفالنا الغداء والطعم اللذيذ.

ما أبطأت الفكرة عن رأسها من قبل، وهي العارفة بحال دجاجاتها، والبالغة في المعرفة ليوم يأتي تحد على رقابها سن السكين، وتلك

حادثة لا تنقضي بقضائها ناسلات البيض.. وليس عزيزاً أن تعوض  
 عنهن بأجمل مما فقدت.  
 ولما كان الرد منها يأتي في فرك حدّ السكين.. كانت الدجاجة  
 تُقاسم أخواتها في الساحة الحركة والضجيج.. إذ عمدت إلى قدميها  
 يد الزوجة، وحملتها كما تحمل غرضاً عتيقاً، فراحست الدجاجة  
 المقلوبة تقطر من ملاقطها بالصوت المستغيث.. وأجرى الزوج على  
 الرقبة المستسلمة بين أصابعه بالسكين، وتولت الزوجة المحاطة بفرع  
 الذراري بقية شأنها.

\* \* \*

كاد الموسم يفنى إلا قليلاً، وهبت في قحط الأيام رياح جافة..  
 شنت كل ذي جلد على عظمه، وامتدت اليد في العشيات على  
 رقاب جميع دجاجات الزوجة، وثنى "ابن ركة" لو أنه تدبر أيام  
 الوفرة فاشترى بقرة كما أشارت عليه بالرأي زوجته، وكاد يتسف  
 من الندم ذؤابة لحيته.. ثم استعاذ بالله من هواجس الشيطان، كارهلاً  
 "لو أن"، وهزّ علبة الصفيح الفضية الرابضة عند مقعده، فوجدها  
 محقونة بـ "التمباك" الأخضر، فاغتبط، وذهب يوضب بأصابع يديه  
 التي اصفرّت أظافرهما؛ سيجارة حلى.. مرّر برأس لسانه من طرف  
 الورقة إلى طرفها؛ وكواها و.. سرح في الدفء الخامل يلفح من  
 مشبّ النار، وشرب عدداً من فناجين القهوة المبهرة بالجنزيبيل مع  
 الزوجة والذراري، وكانوا جميعاً يهطعون في البرد والرياح المتقلبة؛

إلى حُجر الدار ينتظرون يوماً يقول فيه أبوهم.. اليوم سنفعل كذا،  
ولا يدرون ما هو "كذا" وماذا سيكون.

\* \* \*

..و

اليوم بقي من حلال الماشية حمارة غبراء لا تكاد تنوء بالحميل، و قطة  
ولود بثلاثة هررة لم تر عيونهم النور، وفي الساحة أظلاف قوائم  
الثور الوحيد الذي جاءت إلى لحمه حاجة الجيب والبطن.. فباعه  
"ابن ركة" لأهل القرية.. أخذاً كل مشترك في شرائه منه "سادياً"  
من اللحم، أما بقايا الدم والأظلاف بقوائمها.. فما برحت تمتص  
الرياحات والشمس وثكنات النمل الصغير.

\* \* \*

كانت ساحة المسجد بعد خطبة الجمعة؛ تجتمع نثار القوم، وكان من  
بين القاعدين على رؤوس أصابع القدمين.. رجل مجعد الجفنين  
مستقيم الأنف، وقد أركز ذقنه على قبضة كفيه المطبقتين برأس  
العصا.. راح يفرغ سمع أذنيه مع القاعدين الذين استفرجوا الله  
قرباً بعد الانتظار والجفاف، حينما قال الشيخ:

يا جماعة الخير.. جاءنا أمر بإقامة صلاة الاستسقاء صباح الاثنين  
القادم.

٢٣/٧/١٩٩٠م — الدمام

## جد الأسفان

أقوال تتناسج في المجلس، وأصوات تكاد تلمس سقف الخشب..  
 بالأيمان والحلفان، وبين لحظة ولحظة تزداد لفائف الدخان الصاعد  
 من سجائر المدخنين المتضاربين بالكلام في شأن يبدو كبيراً.  
 رجل قليل الكلام، في الجزء الأخير من العمر، يعتقل عقلاً ليلزم  
 عمامته على الرأس.. مال إلى الخلف، بنظارتين لا شك في أنهما  
 طبيبتين بذراعين سوداوين، شدتا خلف أذنيه بخيطين خوف  
 الانزلاق.. تبدو العينان المتحركتان سريعاً كعيني قط حذر.  
 فوق الثوب الأبيض الترابي معطف مندلع الصدر، وكان يعني بلا  
 تردد للناظر أن أحد "أزاريره" قد شد في غير ثقبه فانقطع.  
 لزم "مطير" ركن المجلس، وأهمل يده المحدودة فوق ركبته كالعصا  
 القصيرة، وقال ببطء الواصل:  
 - يا جماعة الخير، الطريق إلى بيت "سعيد" من عهد الأجداد..  
 معروفة للصغير والكبير.  
 - معروفة للرجل الهابطة والصادرة، وليست معروفة للسيارة.  
 - ما كان عند الأولين سيارات.  
 - يعني من حق سعيد اليوم؛ أن يفتح للسيارة خط.  
 كانت الأقوال تتصارع حول هذا المعنى. وسُمع على الباب الداخلي  
 نقر، فقام صاحب الدار، وجاء بإبريق شاي كبير ذي معلق، عساده  
 وجاء بصحن في حوضه فناجين زجاجية، قعد على ركة ونصف  
 وانهمك يصب الشاي في الفناجين، ويحاذر إلا يسلم يده.

تطلع إلى الجالسين فرأى أكبرهم "مطير" فقدم له فنجاناً. على يمين الداخل وقرب سرير خشبي متهاالك بأثر البطاطين والبسط القصيرة العتيقة والملونة؛ قعد صبي، يداعب قطعة ثمرية الفرو كبيرة، تملص من يديه وتحوم ثم تعود بلطف؛ وتقع في حجره الدافئ، تخرج "قرقرتها" المسموعة؛ فيزيلها بعنف خوفاً أن تسرق ما تعلمه من قرآن (كما تحذره الجدة).

كان "مطير" يرشف الشاي بصوت عالٍ، ويرسل نظرات مقننة إلى الصبي والقطعة وكان الجالسون ينصرفون في انشغال بالفناجين الساخنة، ويذهب بعضهم يدخن، وكأنهم قد اتفقوا على صلح ما؛ فأسكت الضجيج.

لم يخل المجلس من فقيه يكتب الصكوك وسينال بعد الوفاق؛ ثمّن التعب والخير والورق، وسيكتب في ذيل "الحجة" الموثقة شهادته ضمن الشهود، ويضيف: "كتبه مغرم بن علي.. غفر الله له ولوالديه" بخط بين "الفارسي و الديواني".

أما وأنه يدرك إدراك العالم أن "مطير" ضعيف النظر وقد تعرض مع هذا العمر إلى هيجان جملة الحاقذ ذات يوم قريب فأهلك بعض ضلوعه، وكاد "لولا عناية الله" يعجنه بكل قوته، فإنه سيقوم بالورقة إليه، ويحبر إهام يده اليسرى ليثبت شهادته ضمن الحاضرين.

كان القوم بالاتفاق قد سمعوا ملء الأذان من "مغرم" أن سعيداً يستحق إيجاد طريق للسيارة إلى بيته، وكل بيت كانت له طريق



للرجل والحافر؛ سيغدو له طريق للسيارة لو أراد، "ويشهد الله و هو خير الشاهدين".

قام كل إلى شأنه، وكان خارج الدار يحتقن بضباب الشتاء، وصاح أحدهم راجياً أن يخلف هذا الضباب المطر: "فرج الله قريب"، وتقافزت النظرات إليه داعية راجية.

وحينما دلفت الأقدام إلى خارج الساحة؛ كانت تلك القطعة تمز ذيلها، وتقود خلفها ثلاث قطط صغيرة كثيرة المساء. وإلى قرب قرص أخضر كبير من التين الشوكي قعد واحد يريق الماء ويسوزع الالتفات، ليطمئن إلى أنه لا أحد حوله؛ ولا خوف على حواف الثوب المهدل من الليل.

حيث كان "مظير" قد خرج مع الخارجين، واتبع قدميه اللتين تعرفان كل طرُق القرية بالخطوة، وهبط إلى الوادي المقابل، وجعل بعينه المختبئتين خلف زجاج النظارة، يطوّف مزرعته، فتختلط قدماه بالأعشاب والنباتات المتطفلة التي عاثت بالأرض، وها هو بناء المدرج الذي لا يكاد يُرى من تشابك النباتات؛ يهدم خطوة القدم، ويجعل آتة "مظير" تكاد تغلف كل المساحة من حوله.

و.. تستبطئ زوجته "شريفة" عودته، فتحدث خاطرها بحديث كلن "مظير" يحدثها به في الصباح؛ عن رغبته في زيارة المزرعة المهملة في الوادي، وتدفعها نيتها على ذلك المكان؛ عله يكون قد تأخر لسبب.

عندما بلغ صوتها اقرب دور القرية.. كان الرجال يحملونه من تحت كتفيه، ويقعدونه على لين الفراش في ركن الدار، ويستدعون "ابن حسين" مجبر العظام، ليعيد مفصل اليد إلى مكانه، يوصيه بالسمن والبيض، وكل ذي طعم مرّ، وينهاه عن التمر، وما حلّى طعمه من الطعام، ثم يكرر الوصية على "شريفة" المسؤولة الأولى عما يحدث لليد المكسورة من خلل.

وبما أن "ابن حسين" مجبر الكسور، لم يمد يده ليقبض "وسخ الدنيا" من الريالات فلن يقبض من "مطير".

زار أهل القرية مطير أفراداً وغير أفراد، وكانت "شريفة" تحرص على اليد المعلقة في الرقبة بالقماش الأبيض المندي بالسمن، وتتن البسطن الراكد في الفراش، فتجعل للبحور في البيت عجاجاً أكثر مما تفعل عند نفاسها. وكانت تحاذر أن تهمل دحان الحطب الحارق، لكي لا يأتي إلى عيني الزوج الضعيفتين، فتشب نارها على العمجين حين وقت النوم، وكان هذا ما يسهرها بعد نوم كل العيال.

اشتهدى "مطير" حبة ثمر مع القهورة، فأبت "شريفة" وقالت: "ويمن أنت يا مخلوق؟، ابن حسين.. منعك عن التمر"، وقامت إلى الداخل وجاءت بحافة من خبزة العيال وعليها صفار بيض تملأ لعته العين، وقالت تطمئنه: "بعد أيام، تطيب، وتأكل الحلّى، لا تعجل".

\* \* \*

"يا شق بطنك يا شريفة".

هكذا صرخت زوجة "مطير" حين باغتها وباغت زوجها وعياطها الخبز، فقد جاء رجل غريب عن القرية، وسأل عن دار "مطير السعدوي" حتى دخل من العتبة وقعد إلى جانب رجل كبير السن، يضع على عينيه نظارة بزجاج أبيض مكبر، وقرأ عليه ورقة صغيرة في يده، علم "مطير" بعدها أن عليه ترك بيته، والبحث عن سكن بديل يؤويه، فـ"خط الأسفلت" تقرر أن يأتي على داره. وكما سمع عن حدث لهم مثل هذا.. فإن التعويض بالريالات سيبلغ جيبه ذات يوم، غير أن وضع الحال، وندمه على تاريخ حياته الذي سيذبح منذ الطفولة في داره مع زوجته وأولاده، جعل قطر عينيه يتحدر من خلف الزجاج بصمت.

الدمام — ١٩٨٨م

## المركوب



مميزة لا يخطئ في معرفتها أحد، أحقر من كل شيء في القرية حقير، وبسيطة، أبسط من صاحبها، وقوية لا تبلى مع كد السنين، بنية فوق مفصل إبهام الرجل، ويطوق سير متين على ظهر القدم. كان "عثمان" يحتذيها في الصيف والشتاء.

وحيث أن مادتها من بقايا عجل السيارات ومن المسامير الدقيقة، وتعيش وقتاً يمل من طوله المحتذي، وإن بساطتها، ورخص قيمتها؛ لا تغريان بالسرقة.

حدث في ذات عرس من القرية الجارة، أن ضاعت، و سرقت أحذية كثيرة، وبقيت حذاء "عثمان" يتيمة. (ومن تسوي له نفسه بانتعال هذه الرخيصة المعروفة؟).

هاك يا واصل خلق الله بالعيب والمعيوب، عمامة "عثمان" التي نالت بخطوطها السوداء المتقاطعة في بياضها المربع، سلوة المتستر، وهاك لسان الشامت في غيرة لوها وحاجتها إلى الصابون.

(وماذا تصنع الكهلة "حمدة" بعمامة "عثمان" التي لا تنظف من الدَسَم؟).

\* \* \*

رغب "عثمان" هذا النهار في دفء الفراش، وأتى على شق كبير من غداء الكهلة، بعد أن صحا متأخراً وسألها عن شيء يصك به جوع بطنه الخالي، وما دامت "حمدة"، وكالعادة.. تصيح في وجهه بندي "البطن الأحمر" فلتقلها هذه المرة عن يقين، وليأت الله "برزق

الشيدق"، وخير الرزق ما كان من الغيب مباغتاً، ولن يأتي على السريير جاهزاً، ولو تمدد "عثمان" في الدفء والانتظار فوق الحول حولاً.

سأل "عثمان" عن عمامته التي خلعها قبل نومته قرب الفراش البارحة، فقالت كهفته إنها غسلتها، وستجيء بها من الساحة، فقد جفت.

ووضع عجيزته قرب مشب النار، وكان على حلق "الكانون" قدر مفحم الجوانب والقاعدة، يتطاير منه بصوت خفيض بخار أصفر، فقد ملأته حتى النصف "حمده" بحبوب الذرة التي تحتاج إلى نار، ووقت طويل.. يلين ويُحضّر للعشاء.

\* \* \*

كان رد الكهله "حمده" حين سأها عثمان عن ابنه الوحيد، أنه منذ الصباح عند أخواله، وزادت بلسان اليقين، أنه سيعود قبل دخول الليل، وكانت تطلب من "عثمان" الأب، أن يمنح "الولد" بعضاً من قلة الاهتمام، فيكون جوابه بلهفة الحريص: "أخاف عليه"، وتجبب الأم أنه رجل يحسن التصرف، ويعلم في المآزق كيف ينجو بنفسه، فيغمض الأب عينيه، ويقول: "ودعته خالقه".

ما كان الولد ليخرج من البيت إلا قليلاً، حتى إن أنداده من الصبيان، يدعونه بـ "المختبي"، ويدعونه الناس ممن أهل القرية بـ "العاقل"، غير أن لسان الأب، وقت إذ نهره بالصوت المرتفع

وبالتهديد، ساق خطوته نحو أحواله منذ نقب الأب عن أدوات  
الحلاقة في الضحى؛ فنهزه بقساوة: "ما أحد غيرك في البيت.. يلعب  
بأدواتي".

ومهما تكن الحال؛ فإن "المياه ستعود إلى مجاريها"، وستمحي لمسمة  
من يد الأب على الكتف الصغيرة كل ماض مرير.  
أما وإن الأم قد نالت شوك الكلام في مثل هذه الحالات، فإنها  
ستلزم شفيتها السكوت، وستمح حلقها المحلى بسلكليل الفضة  
القصير؛ المهمة والكتمان.

عندما عاد "عثمان" من الوادي؛ وله به أرض صغيرة تعيش  
على ماء السماء، قال لـ "حمده" إن السنابل الناضجة تحتاج إلى  
"صرام"، وكانت في محصولها؛ لاتزيد عن الكيسين، والكيس يكفي  
باليد المدبّرة شهراً من الطحين المخبوز، (وليبارك الله فيما يعطي).  
بعد أيام شدّ "على حمارته المراحل"، وأحسن ميزانها على ظهرها،  
و"أشهى" أسنان "محشّ الصرام" وقال: (على الله، نوي الحصاد)،  
وساق أمامه الحمارة، يركب "الولد"، ويألي برجلين صغيرتين  
قصيرتين. أما "حمده" فتنظر في ساحة البيت، بعد أن تجهز الوجبة  
في وقتها، وتلتقف من الابن حين عودته الأولى؛ بما تحمل الحمارة،  
تسطّحه على الأرض، ويعود راكباً إلى أبيه، وتلك حالة كل ذي  
حصاد في الوديان والمدرجات.

وضع الولد مقعده على الحمار، وأهمل على الجنين قدميه، وصاح بالحمار: "هش"، فمضت في طريقها من غير عوج، ثم ما لبثت أن مدت خطوتها، وأضفت على سرعتها؛ فمال إلى جنبه "الولد"، ودعاها باللين لتقف.

عاندت الحمار، وانقلب على رأسه، فكان الولد يخطّ على الأرض، وقدماه معلقتان في "المراحل" الخشب، وإن الحمار ليخيفها البدن المسحوب، فتزداد سرعة وخوفاً. كانت قطع اللحم من الرأس والكتفين، والدم.. تصبغ رؤوس الحجارة على طول الطريق، و كان "عثمان" بعد ساعات؛ يندب إلى جانب كهلته وينشد:

"يا جحش يا نفاق جوف السفول"

ويعلم من يعلم، وينشد باللحن الحزين على "الولد" الشهيد.

\* \* \*

(ماذا جنيت في دنياك يا "عثمان"؟، وأين الفم الذي سيطبق بالهناء على اللقمة المرّة؟، وماذا بقي لك في الأيام؟).

هكذا حدث "عثمان" نفسه من بعد عشاء؛ في ليلة أنفق فيها مع "حمده" كل ما على اللسان من حديث، ونظر بعين الرجاء والأمل على وجه كهلته، وقال:

(لا عليك يا "حمده"، اليوم نخسر الولد، وغداً نكسب الحياة والرزق، فليعوّض الله، وليختر ما يختار لعبده، فهيا ننام). وكانت



"حمدة" تمسح قطر العين، وتقاوم فرحاً صغيراً نبت مع كلام  
"عثمان".

أيقنت أن لا محصل للبكاء إلا البكاء، ولو ذرفت من الدمع بحاراً،  
وقالت بلسان الصابر المنتقم:

(يا عثمان، لا تبقى قاتلة الولد في البيت).

ترقق "عثمان" بقول "حمدة" وزاد عليه، أنه قد نوى، ولو بثمان  
حذاء، فـ"لتنقلع" إلى حيث لا يدري.

\* \* \*

كان النهار مسغراً، وكان الناس يأتون بأكياس الخنطة على الحمير  
إلى بيت "عثمان"، وكانت "حمدة" تحلف على كل آت ليشرب  
القهوة وتردد:

(ما ضاع من تعاون، ولو باليسير .. بين القوم)

١٩٨٩ — الدمام

## ابن القاسي



كان "علي ابن القاسي" قد تعلم القراءة والكتابة منذ زمن بعيد، على يد الفقهاء الذين كانوا يعلمون الصبيان القرآن، ويؤمنون بالناس الصلاة في مساجد القرى، فينالون من الأهالي نصيباً من حصاد الثمار.

ويذكر "علي" أن "الفقيه" حرمه مرة من حضور الدرس، ونفذ به عقاب العصا.. لأنه لم يجيء كالباقين بما يقابل أتعابه في التدريس. ويذكر أيضاً يومها.. أنه فرح جداً، وانصرف أمام عيون الأولاد، على حيث مباحه المطلقة بعيداً عن البيت والفقيه.

عندما بلغ في تعلمه للقرآن سورة "العنكبوت"، رأى والده أن يذبح شاة لفرحة كان ينتظرها ويعسد لها، وقالوا الناس: "سورة العنكبوت.. فيها شاة تموت".

أدرجت اليناعة عودها، ونما شعر الشارب بعد أن كان كلمسة الفحم، وزاد الزناد زنادة، واشتد عزم الفتي، فكان يحمل عن أبيه الطاعن في العمر أثقل الحمل، ويقف عنه في كل موقف، وفاض لسان الناس بالحسن والهناء لـ "ابن القاسي"، فقالوا: لم يمت، كما مات البعض مع عصيان أبائهم، وهم أحياء.

\* \* \*

سمع الناس بافتتاح مدارس، نبذت خلفها "الفقيه" وتعليمه.. فكانت تعلم الحساب، والتاريخ، والعلوم.. وبعد سنين قليلة يقبل فيها المتعلم كبيراً أو صغيراً.. يدخل معهداً للمعلمين، فيكون مدرساً لمن

هو أصغر منه، ويأخذ من الحكومة قدرًا من المال، فكان "علي بن القاسي" واحداً منهم.

وأصبح يرتدي الثوب الأبيض المزهر بالنيل، ويضع على العمامة فوق الرأس عقلاً، ولم تبق عين في رؤوس الجماعة.. يوم زفاف أخته الوحيدة ما امتلأت به، فرفع من شأن أبيه وأخته، ولم يكن لينقص ذلك الاكتفاء إلا غياب الأم، التي ماتت كما يقولون "بجوع بطنها".

\* \* \*

أصبح صبحٌ علي "علي" وقد خلت الدار من الأب والأخت، فمثلما جرت الأيام الأخيرة على أرذل العمر.. جرت على أبيه، وطعنت طعنتها الأخيرة، التي لا حياة بعدها. ومثلما جرت على الصبايا العانسات.. جرت على أخته بدخولها بيت الزوج.

وها إن "علي" يفلى لحيته، ويؤرجح ساقيه، ويذهب بعينه الثابتين في بيوت القرية بيتاً بيتاً، فمن تكون تلك التي ستأويه وتعجن خبزته، وتغسل ثيابه؛ وبالمودة والرحمة تملأ عليه البيت وتجب الولد؟

بعينه الواثبتين طافت بنات كثيرات: فبنت فلان طيبة اللسان حسنة الوجه.. نشيطة في المسراح والمراح، وبنت فلان شديدة في الفلاحة تبية الطاعة بكر الحياة، وبنت فلان في كعبها النكوص.. لا تحمص ولا تموص ولا تلي اللقمة الرقيقة.

(فاختر يا ابن القاسي، وعليك بالعزم وتنفذ ما تضره نيتك، فلا انتظار بعد اليوم، ولا حيل لزمان يأتيك تصفق فيه الكف بالكف). فكان لـ "علي" أن استعان بزواج عمته.. يخطب له (طيبة اللسان حسنة الوجه.. النشيطة في المسراح والمراح).

قالت بنت فلان تلك: ها.. أتزوج وارث أبيه وأمه ووحيد أخته!، في الغد يقولون الناس طمعت في وحدته، وباعت نفسها لمعاشه الذي يأخذه من الحكومة. غضبت أمها، وكتتها بـ "قليلة الحظ"، وكستها "الخزي"، ونقص المعرفة.. فمن لا يقبل مثل "علي" زوجاً. وبالأب ذي الكلمة النفاذة هددتها. فخافت وخجلت، وهبط الرمض الناعس فوق عين ذات الستة عشر، قالت بصدرها النايت "كما الفناجيل المكبية": أيا بنت فلان.. رأيك قاصر، ورفضك ناقص.. خذي "شور" أمك، ولا تصنعي في البيت بينسها وبين أهلك الشجار. ولم تجب، فكان كما يقولسون: "السكوت علامة الرضى". وكان في البنات من حسد، وفيهن من تمنى، وفيهن من لا تعرف بعد كيف تمى قلبها للدهشة.

\* \* \*

كما يتزوج فتيان القوم.. تزوج "علي" وفي الغداة سرحت عروسه مع النساء المكحلات المحليات بالفضة و"المفارد".. إلى بشر السقاية ينتزغن الماء، ومعهن حملت قربتها، وعجنت مع الأيسادي الكثيرة

"قال" الضيوف وقت الضحى. لقد أصبحت تحت ضوء شمس جديد، وفي بيت جديد، وبين يدي رجل متعلم نظيف الثياب. قعدت قدام المرأة.. فرأت وجهاً غير الذي عرفته قبل الزواج، ولملمت هطلان شعرها الأسود المصفّر، وابتلعت ريقاً سائغاً، واهتزت "دلاديل" الحلبي الفضي في اليدين، فأدركت أن البارحة ليست كالماضيات، وأن اليوم لن يكون كالبارحة، وأن بنتاً كانت في حضن الأم، وبين عيني الأب وألفة الأخوان.. قد جاءت لبيت ستكون مديرتة، وأليفة رجله، وأم ذراريه.

وقال "علي" بعد انقضاء مراسم الحفل: يا "حضراء".

فقالت على نخجل: "يا مخلوق"، ولم تدعه باسمه كما فعل معها. أيام تجيء وتقول يا أبا فلان. وأيام آخر يذهبن بالنخجل إلى ما شاء. لا حماة، ولا أخت زوج ولا عمّة. وفي مربوط الحلال.. مثلما للناس: حجارة، وبقرة، وثور أحمر عريض بقرنين، ودجاجات يتفسحن في الساحة من البيض يأتين، ومزارع تنتظر الفلاحة والبذر.

مضت الأيام، وهنى "علي" بالزوجة الحسنة، ودفء البيت باللمسة الأنثوية اللينة، وقال لأيام الوحدة: "من إيدي في ايديهم"، وحطّ الريال من المعاش مع الريال حتى نما المال في عينه، وممرت سنون ست والزوجان يرقبان الوليد.. فما زاد مع الترقب إلا الإبطاء.

\* \* \*

ظمئت الحسرة في صدر "حضراء" وشحب الأمل بقلب "علي"،  
وتنقل الكلام في لسانات من لا سيرة في أحاديثهم إلا قيل وقال.  
وسمع "علي" قولاً هائجاً يطعن في الخاطر، فاغمض العين، ونقر  
الآهة من بين الضلوع، (فمن يكون الخصم، ومن يكون  
المختصم؟!، وما دخل القوم في عش كائنين ارتضيا بحاصل  
النصيب؟!).

قال فيه لسان: "دجاجة صمعاء".

وقال لسان: "لا يحذف مع الناس، ولا يجيء بالخصم".

قال آخر: لا خير يرجى من ظهره.

وإذا كان "علي بن القاسي" قد كساه اللسان الجارح بثياب غير  
البيض التي يكتسيها.. فإن "حضراء" قد أدمت من أظافرهما بالكلام  
الشائك، والقول اللاذع.. فقالوا: إنها كالبقرة تدجن ولا خير منها.  
وقالوا: العيب.. فيها والشر في كعبيها، وقالوا: لسو أن "عرقها  
دساس".. لأنجبت كما تنجب اليساس.

ف: (من يكون الخصم، ومن يكون المختصم؟!، وما دخل  
القوم في عش كائنين ارتضيا بحاصل النصيب؟!)، وكيف يرضي  
"علي" و"حضراء" أناساً لا يعجبهم عجب ولا عجيب؟!.. ألا  
فليدعا لله أمراً لا يد لهما فيه ولا رجل.

قال والد "حضراء"، وهو يهز يداً حمقاء في وجه زوجها:

بنتي تحييء في بيتي، وأنت تقعد وحدك في بيتك. وخرج بها على كره منها.. فلمن تكون الطاعة يا بنت أيبك وزوجة بعلك؟. انقادت معه على الوعيد، وحملت جمرًا في الصدر لا يسراه أحد، وتنازى ماء حارق من العين فكوى قلب "علي"، وجذبها من طرف الثوب وقال:

زوجتي يا عم، لم تعد ابنتك.. فافعل ما ترى. اهتز ذراع الأب، ولطم على وجه الابنة مهددًا: "امشي يا بنت إن كنتي من ظهري". علي الصوت، وسمع السامع، واجتمع المجتمعون.. فقال البعض أخطأت.. كيف تتزعج ابنتك من يد زوجها وهي مكرهة؟.

وقال آخرون: دعوها معه تذهب. ولعل الأمر بعد وقت إلى الخير يصير. قال "علي" والغضب يعصر سكينته، ويقلت من بين يديه حكيمته: لو خرجت، فلا تعد بعد اليوم من عتبة بابي.

احتد وجه الأب بالقول: افعلها؛ إن كنت من الرجال. "غضب الله على الشيطان" قال الحاضرون. سحب العم ابنته، وسحب الواقفون على الأمر عليًا.

\* \* \*

كان الفجر يتدثر بضوء رمادي بارد، وكانت القرية في آخر نومتها، وكان "علي" يدب كالوهم، فيشعر "حضرًا" في بيت أبيها بحضرتها.. لتخرج إليه ملفعة بشرشفها الأبيض، خلعت "قلاقيـل"



حليتها وفي صرة تحملها اليد؛ مع ملابسها وضعتها، ثم وهبت في يد الزوج يدها، وعادا دون عين ترى، أو أذن تسمع إلى دارهما.

..و

حين انتصف الضحى، وقلّب الرأي مع الزوجة الأب.. خرج أولاً إلى دار زوج ابنته، ونادى باسمه من الساحة الفسيحة فأتاه، وقال: مرحباً يا عم.. أدخل فالدار دارك. كأن العم لم يستمع لقول طيب، وتجاهل أن يرد بأحسن منه، بل قال: أخرج تلسك الملعوننة، التي شقت عصا طاعني، دعني أجرها من شعر رأسها، وأمرغها في التراب.

بالهدوء قال "علي": اهدأ، يا عم والعن إبليس، فما هكذا تتفاهم الأرحام.

وهل تعرف معنى الأرحام؟. رد العم.

كانت مسامع "حضراء" في الداخل قد حوت كل ما جرى من القول والسباب. بلغت الباب ووقفت كالشجرة المنداة بالرواء، وقالت بصوت المستحي الطمعان: اسمع يا أبي.. أدخل بحفاوة الابن والبنات دارنا، وهبْ أننا أخطأنا في واجب الحق معك، تعال، في الأمر نأخذ ونعطي.

لم يهبها من بصره طرفة. فلما صعب على النفس مقدارها وعزها.. تفضت كل عادة مفروضة وقالت باليقين والحدة: أنا

"حضراء" بتك التي ربيتها، وعلمتها عِزَّة النفس وقرارة الرأي..  
والله، لو قطعتني لا أبرح بيت زوجي.  
كبرت في خاطر الزوج، وهزل الأب مع نفسه قدامها، فعاد  
خامل الخطوة يجر كعبه على تراب الساحة.

\* \* \*

هدرت ألسنة الناس من جديد، وصنفوا لكل حادث حديث،  
وكان الزوجان يسدان المسامع واحدة "بطين، والثانية بعجين"،  
(..فليصيغوا من القول بينهم ما طاب)

دارت الأيام دورتها، وحصحصت بالوضوح أمور كانت في  
الغياب، وكما تبرد مع الوقت كل حارقة.. بردت ألسنة  
المتلسنين؛ ولقد انشغلت بشاغل يصرفها. وكان الأب لا يزال  
من بنته وزوجها في الإعراض، وغامت بالسمامة عيشة البيت،  
وربى الخصام بينه وبين أم "حضراء"، وحلفت باليمين أنه ممن  
يهدرون آخر سنين أعمارهم في التخريف.. (فمن يقطع في  
النهار الجهار رحيمه وخليلة مهجته!؟).

وعندما تشتد القتامة مع الزوجة في الصلر.. يكون ضيق البيت؛  
يتقارب بالزحف على النفس والنبض، (وكان النبض يتفرض  
بكلام فيه حب "حضراء" ومودتها، ولكن من يعلم به، ومن  
يدرك أن الأب لا يمكن أن يطأ قلبه عنوة!.. فإنه يلف على

الوجه المجدور العتيق أذيال عمامته، ويخرج مثلما يبحث عن مؤنس يقضي معه الحديث.

اليوم..

وبعد سبع من السنين مررن شحاباً.. نبتت البذرة وتورم بطن "حضراء"، ووجد الفرح له في ضلوع "علي" المكان، وتشعشع الغبوط بين حنايا الحامل، وحين علم الأب.. فكّ اللثام، ودعا الزوجة والأهل لزيارة انقطعت طويلاً، وقال بالرضى: "عفى الله عما سلف" وقد كان يتقب عن عذر يحو به خطيئته.. فجاء إليه كبيراً مفرحاً.

التمت أصابع اليد كواحد حين تقبض على ممسك النصل في "الجنبة".

وجاء "علي" فحدّ الشفرة على رقبة الخروف؛ واستضاف الجار والقريب، ووعد العم بميزة اسم الولد، أو الحماية إن كان المولود بنتاً. (فليهيئ له الله من المولود الخير والصلاح وقرّة العين).

\* \* \*

تنازت حبوب الماء قوية ممتلئة من سحابات الشتاء، واغتسلت واجهة الأرض مراراً، فمنذ أيام وضوء النهار لا يبان "له حدّ مع الليل.

كانت "حضراء بنت مساعد تعيش مراودة المخاض وكان "علي ابن القاسي" في تلك الليلة يعاني قلة الحيلة قدام زوجته التي

قرصها البرد، وعصرها المخاض، فأدرج خطواته نحو بيت العم عند طرف القرية، ولم يجد بالدار أحداً، فما كانت أم "خضراء" لتحسب أن انتهت على موعد فوجئت به بعد شهر الحمل السابع.

أقفل "علي" عائداً، وطق باب أخته، وكان مطر الليل يتدجج في ثيابه اللازقة بالبدن، قال له زوجها: "أدخل يا رحيمي من المطر.. شريفة، أفلحت عند حماها".

قعد ينتظر، وكانت فتافيت الوقت تنسج من خيوط العصب غزلها. وبعد وقت رآه مديداً قام كالمسوع وخرج.

كانت "خضراء بنت مساعد" وحيدة في الدار، والمطر في الخارج لا ينقطع، ولم يكن لأي صوت مكان في الأذن، وكان آخر ما استدركه سمعها صراخ المولود الذي "يخرج من الميت".

لم يستطع "علي" أن يجمع بين متناقضين حين دخل متأخراً، وفتش في قلبه فوجد "خضراء" نضرة كالشجرة الراوية لا تموت أبداً.. لكنها لا ترد على النداء ولا تجيب لمناداته التي تنازلت على هيئة القطر الخفيف من عينيه.

الآن.. حين ترى عيون القوم هذا الشاحب الطويل المتسم يقولون: إنه "مطر بن علي القاسي".. وينسون إنه ابن "خضراء بنت مساعد" الشهيدة تحت مطر الشتاء وعصرة الولادة.

## منشوربي

نفر.. أوكلوا الله على الزرع والحلال والأهل، وودعت قلوبهم  
آخر شجرة لوز عند رأس الطريق الذاهبة خارج القرية، تحملهم  
النية إلى الحج هذا العام.. ففيه ككل حج من كل سنة إليه  
يقصدون "الأجر والأجرة"، وفيه يجتمع الحاج من كل قطر  
غريب، ويأتي معه بكل شأن في الحياة غريب.

\* \* \*

من بلاد ما بعد الهند؛ قوم جاعوا للحج.. يرطنون بلسان لا  
يفهم، ومعهم من أهل القرية يعمل "سعيد" سيكون أول  
محطة للآتين من أولئك الذين يشاركونه الحياة في القرية.

\* \* \*

ها إنهم دبوا إليه بعد سفر طويل، أشعثت فيه وأغيرت الأبدان،  
وبعد سؤال طال معه البحث والتنقيب، فلقبوه بوعثاء السفر،  
وقبلوه وقبلهم في الرأس والمنخر.

سألهم عن الحال والحلال، والديار والأهل والزرع والمطر،  
وسألوه عن عيشة المدن، وعن عمله مع الذين لا يعرفون لغتهم؛  
فرفع رأسه حتى مطت رقبته، وقال إنه تعلمها، ويقدر على  
فهمهم وإفهامهم بها، وعليه سوف ينزلون عندهم ضيوفاً  
ويأكلون طيب الأكل والشراب. فرحوا وهانت الأتعاب في  
أبدانهم، وحوث عيونهم المسرة والرضى.

\* \* \*

بعد شيء من الوقت؛ دخل واحد من أولئك القوم، فأقحم بالدهشة التناقض، وافزعوا بهيئتهم سكونه، فسرت في دواخله الريبة والقلق. قام إليه "سعيد"، وأفنى في حضرته عدداً لا يحصى من الكلام المعوج، والحركة المؤيدة باليد، ليفهمه بأن القاعدين قدأمه من أهل قريته، وأنهم قصدوه بعد عناء البحث والسؤال في أول محطتهم، وراح يلجلج باللسان، ويهمهم، ويمزج العربية بغريب اللغة.

سأله الحاج الغريب بكلمة واحدة (لعلها تعني "لصوص"):

- "من شوري؟!"

فقال "سعيد" دون معرفة منه بما أراد:

- نعم، "من شوري".

تأمله الحاج الغريب، وأعاد بنظره إلى نفر القاعدين، ثم هز يده، وصفح "سعيد" على وجهه، فأخذت بالدهشة والعجب عيون القاعدين من أهل قريته، وقالت نواظرهم.. لعل "سعيد" قد أخطأ في شيء لم يدركوه، وهذه حال المرؤوس أمام غضب الرئيس.

\* \* \*

التفت "سعيد" إلى قومه، وباقتصاد في القول.. أوضح لهم، وهو لا يزال مستعرضاً أمامهم بمعرفته للطرقات الغربية.. أن هذا السيد؛ ليس كالذي سيأتي بعد قليل، فهو بخيل ولا يتفهم مقدم الرجال، ولا كيف يقوم معهم بواجب الضيف. وقلّب على خده وصدره جمرتين من الوجع والإهانة دون إظهار.

\* \* \*

بعد انتظار من الوقت.. دلف إلى الداخل سيد آخر، كان "سعيد" يأمل في حضرته الخير. ومثلما جرى له مع حضرة الأول، جرى مع هذا المندهش أمامه، وسأله مثلما سأله سيده الأول.. فقال "من شوري".. مد إليه بالكف الحامية فغدت عيني "سعيد" ورقبته الممدودة إلى قدميه، وعلى بطاء راح يجرجرهما إلى الوراء.

\* \* \*

لم يعد للنفر المشخين بالدهشة والحيرة والعجب وبالجوع و المهانة والتعب، مكاناً عند ابن قريتهم "سعيد"، فمضوا خارجين اتقاء مزيد الخرج والعقاب.

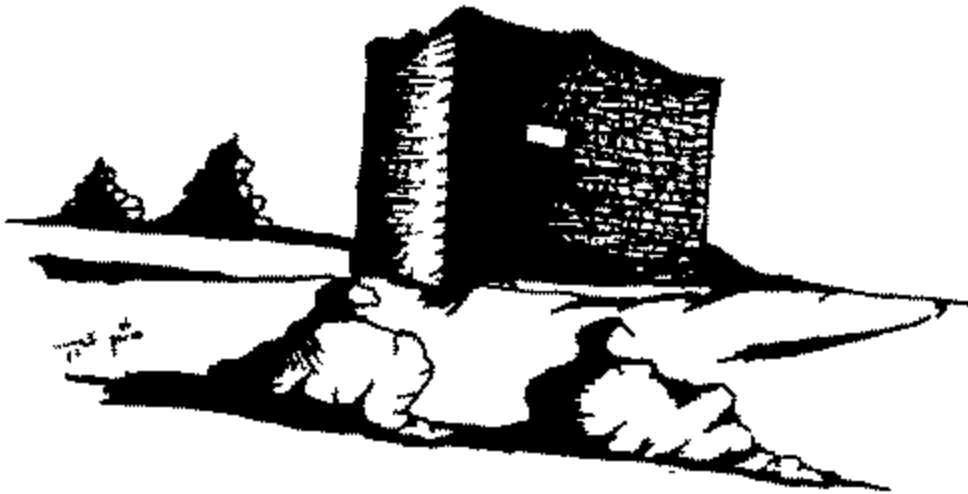
وحين ألت بهم دوائر الكلام.. رأوا أن "سعيد" أراد أن يبلو في عيونهم عارفاً للطرانة بغير لغتهم، ويبيّن ذكراً حسناً بين



الجماعة.. غير أن الذي كان.. أظهر ما لم يكن له في البال،  
فليعنه الله على ما أصابه، وليعنه على تحمل المتندرين بعد عودته  
من الحج، ولتذهب "من شوري" مثلاً لا يقدر "سعيد" أن  
يُصِيف عن حرقته.

٢٦/٦/١٩٩١م — جدة

## أبو الحصين



ملأت شهرته كل أذن في القرية وقالوا إن "عياف" رجل بصير، فهو يقول القصائد في المحافل، ويفري الجلود من بعد دبغها، وشاهدوه مراراً يسلك بقدمه في خشب "العرب"؛ فيصنع الصحون والمحال.

وكان بعض رجال القرية؛ حين تفضى أيديهم من العمل في العصاري.. يقعدون معه أمام الباب في ساحة الدار.. قليلون ويكيلون في الكلام معه.. فحديثه لا يمل كما يقولون.

مرة يسقيهم القهوة، ومرات تكون أم عياله في شأن يشغلها.. فلا يشربون. غير أنهم هذه المرة جيء إليهم بالدلة المهيلة ومعها صحن صغير؛ عليه حبات قليلات من التمر، ودارت فجاجين القهوة وارتفعت إلى الأشداق بالأصابع حبات التمر، وطاب الكلام لـ "عياف".

\* \* \*

قال، إنه افتقد واحدة من دجاجاته مسية البارحة، وألقى ببصر عينيه المزمومتين إلى الأرض، وبرطم شفتيه، ولم يبدُ شاربه المجنح قليلاً في هيئة مرضية، ثم ما لبث أن هذب من تربيعه قعدته، وحرك يمينه بكمها العريض، وألزم أصابع الأخرى على مهل ذؤابة لحيته الجامدة القصيرة، فبان أن هناك حديث سيقال.. وقال:

- يا جماعة الخير.. الدجاجة ذهبت في قم "أبو الحصين"، و"أبو الحصين" عدو لكل دجاجاتنا، وإذا كان قد اقتنص دجاجتي اليوم؛ فإنه يعرف الآن طريق صيد دجاجات كل أهل القرية.  
قال واحد:

- يخسى "أبو الحصين".

قال ثالث:

- لا والله.. ما حقه إلا الرصاص.

أشار "عياف" بجزء مقتضبة من يده، و: كأننا يرغب في الكلام  
فقال:

- هذا هو الكلام.. فيكم رجال، لم يخرجوا إلى الوديان؛ إلا ببنادقهم، والبنادق ما صنعت إلا للرمي بالرصاص.. أقول لكم، إن "أبو الحصين" فعل بخاطري ما لم تفعله حشية البندقية بدجاجتي، والهمي الحسرة عليها، فقلت: لا هنت يا عياف، جماعتك ما يضحك منهم الماكر.. والله لو قتلوه ورموه قدامك بلا روح.. لأعشيهم على ذبيحة من الغنم، ولو اشتريها بقيمة عشرين دجاجة.

\* \* \*

كان القوم في ذيل الشتاء، وكان البرد يجمع آخر أنفاسه في الأيام. وكانت البطون تقرم لرائحة وطعم اللحم، فاستيقظت النخوة التي سابقتها اللعاب وجرى مع نطق اللسان:

- نجىء به، ولو كان في أبعد الديار.

ولما كانوا يتصيدون المناسبات، لشيء ذي بال يهم الشأن، أو  
بغير شيء.. ولما كانت البنادق تستثير أيدي حامليها.. كان فجر  
اليوم التالي يواجه انتشار نفر من الجماعة تفرقوا في الوديان،  
يدورون عن "أبي الحصين"، (فأينك يا أبا الماكرين من طردتنا  
خلفك؟ وأين ذيلك الكث المسحوب من نار بنادقنا؟، وأين من  
يجرك كالحرقه قدام عياف؟، وأين ساعة تنهأ فيها حرقه  
بطوننا للشحم واللحم!؟).

\* \* \*

حين بلغت الشمس مبلغ الضحى، احتوت الأذان نقر رصاصه  
ملأت بصداها الوديان، فتوقف الباقون عن البحث، و التمسوا  
قرب مبعث الطلقة، وقالوا لا يطلق بعدها طلقة.. فلو سمعنا  
"عياف" ظن أننا قتلنا أبا الحصين وعشيرته، وهذا سيعفيه عن  
الوفاء بذبيحته التي وعدنا بها.. فهو يريد أبا الحصين الذي سفك  
دم دجاجته ليس غير.

جاء ابن فلان بأبي الحصين من ذيله، وجرجره كجلد الذبيحة  
طول الطريق، وعلى كتفه اليمين رفعت أنفها بندقيته الحامية،  
وتقاطر النفر خلفه إلى دار "عياف"، صاح ابن فلان من حافة  
الساحة:

- أخرج يا عياف.. غريمك هامد في يدي.

\* \* \*

كانت الشمس التي تكاد أن تلج كبد السماء بعد الضحى، تكشف كل خبايا الدنيا في العيون، وكان بيت "عياف" يحمي بنصاعة الضوء، الذي أبان بناء حجرياً مرصوماً رابضاً وسط ساحة تتقاذف في بساطها الحدود شجرات لوز قليلة متباعدة، وبابا النافذة الوحيدان المطلان إلى الساحة، والمنقوشان بتعاقب دقيق.. قد سطعا بلون القطران الأسود، وكان مصراع الباب يختبئ بدرفته في ظل فتحته داخل البيت.

في جهار النهار القروي يسبح كل شغب وحركة في الانشغال بالحلال والزرع.. غير أنه قد خرج على هيئة الخيبة المعبأة من لسان "عياف" وهو يندفع من الداخل بقدمين حافيتين وفم مفتوح، ليقول، دون أن يقصي عينيه عن أبي الحصين:

- هاه.. سلّمت عنايتك يا ابن فلان، لكن: أبو الحصين "هذا.. ليس هو الذي أكل دجاجاتي، هذا من وديان القرية المجاورة، وما هو من وديان قريننا، وحسبك أنك فتكت بروح حيوان ليس له في الأمر ذنباً ولا تائباً.

\* \* \*

ألقي ابن فلان بيندقيته عن كتفه، وأسندها على حجره، حيث قعد على أصابع قدميه مهمهماً: (فعلتها يا عياف).

تناول بالالتفات والدهشة رفقاء ابن فلان، ومأثله في القعدة وإهمال البنادق، فتقاسموا صمتاً كالصخر رنا على الجميع. أضمر ابن فلان ومن معه لـ "عياف" أمراً، وأدرك "عياف" أنهم لن يتيهوا في لعبته، فرأى أن يستحوذهم بلين الكلام، فدعاهم إلى داخل البيت، وسقى عطش لهاقم بالقهوة المهيلة، ولا زال يلاطفهم في هدوء ضعيف، ويتحسر على قوم بينادق تحصد العشائر وقت اللزوم؛ لم تقدر على صيد أبي الحصين الذي فتك بدجاجته.

كان ابن فلان ومن معه لا يتكلمون إلا القليل، وكانت صدورهم تعج بالانتقام، وكانت معرفتهم به وببصيرته واحتياله تهيئهم من فعل لا يعلمونه. ودعوه وقاموا، وكان أبو الحصين يشغرفاه ممداً طرف ساحة الدار.

\* \* \*

هبطوا بعد أيام إلى سوق القرى، وعمدوا شيخاً عُرف بحل المتشابهات بين الناس.. حكوا له ما جرى لهم مع "عياف"، وندت الحسرة والتشفي من حلوقهم، وطلبوا منه حكماً يرضيهم، وأكدوا على حفظ الأمر، فوعدهم، وألزمهم موعداً بالمجيء إلى قريتهم.

و.. كان ما كان من أمر المجيء، فاستقبل "عياف" الشيخ على خير السعة، وقدم له ولابن فلان ومن معه القهوة المهيلة والتمر.

دار بعد دورة فناجين القهوة الحديث، وأوضح لـ "عياف" الشيخ ما سمعه من جماعته، وقال:

- .. واليوم، إن كنت ممن يأخذون ويعطون في الحق، ولا ينقصون ما وعدوا به الموعودين.. فجهز سكينك وأرق دم ذبيحتك وقدام كل عين تعلق أبا الحصين على غصن تلك الشجرة في ساحة دارك.. ساعتها، نقول عياف كمل وجمال وأوفي بوعد قدام القاضي والدائي.. وصلى الله على محمد.

قال كل لسان حاضر: "صلى الله عليه وسلم"، وأطبقت الأفواه مع استعداد المسامع لرد يأتي من "عياف" .. قال:

- جئت، والله يحبيك يا شيخنا، والحق ما يرفضه إلا الجاهل، ولكن، أقول.. إذا كان ابن فلان ومن معه.. يؤكدون لي باليمين والحلفان.. إن "أبو الحصين" الذي صادوه، هو بذاته الذي أكل دجاجتي.. فإني أوفي بوعدي دون تقصير، واطعمهم "مرقة" ولحم الذبيحة هذه الليلة.. وإلا، كيف أقبل؟! \*

\* \* \*

حيثما التفت الشيخ على ابن فلان هذا ومن معه.. ورأى أنهم لا يقدرّون على حلفان اليمين، وليس هناك ما يستدلون به على أنه "أبو الحصين" الذي أكل دجاجة "عياف" .. قال ووجهه البالغ النقاء بالشعر الأبيض، وعقال رأسه يكاد ينحدر من مؤخرة رأسه، ويده اليمين تومئ بحركة تلاعبت مع قول اللسان:



- يا عياف، هذا تعجيز، وفي التعجيز هروب، وفي الهروب إداقة،  
والإداقة عليك بنكران الحق.

اختلطت الأصوات، وهاج وماج أحضرها بياستها، وضافت  
ساحة المجلس بالهرج، فطلب الشيخ منهم السكوت، واستدر  
موافقة الطرفين على قبول حكمه، والله على خير ما يقول  
معين.. فقال:

- اسمع، يا عياف.. الليلة تعشينا جميع على العيش والسمن،  
ويسقط عنك ما لزمته به من وعد الذبيحة.. بعدها؛ لا لك،  
ولا عليك.. كيف ترى؟.

\* \* \*

رأى "عياف"، أنه قد بلغ السبيل المسدود، وأن بعض الشر أهون  
من بعضه.. فالعيش والسمن ليس كتكلفة الذبيحة، ومجيء  
الشيخ في أمر كهذا ليس بالأمر الهين.. وماذا سيذاع عنه في  
القرى والقبائل؛ وهو الذي تملأ بصيرته وطول ذراعه البعيد  
والقريب.. فقال بصوت يقين:

- "قبلت حكمك يا شيخنا.. الله يجيكم جميع".

\* \* \*

كان الليل القروي يهبط هادئاً نقياً، تحترقه نباحات متقطعة  
للكلاب، وكانت بنادق القوم ترتكز على كعوبها إلى جوارهم  
قرب جلستهم الملمومة حول صحن العشاء، وقد راحت  
أفواههم تصطفق بلقم العيش اللينة مع السمن وكانت تفوح منه  
لذاذة محببة.

أما "أبو الحصين" فكان ينتفخ على مهل طرف الساحة، ففي  
الغد سيغدو مرتعاً لزرافات النمل والذباب.

١٢ / ٦ / ١٩٩١ م — جلد

## الهديل



ستجد على يمينك، وأنت تدخل من الباب الخشبي بنقوشه الهزيلة؛ "مشب" النار، وكأي "مشب" في بيوت نخلق الله.. تتناثر من حوله أو ان لا بد أن يكون أغلبها ملطخاً حتى أبلغ صلابته بالحمم، تظهر قشرة سوداء، وربما كانت أتخن من معدن القدر الأصلي.

وحيث يكون الركن قريباً من "المشب"، فقد حوى على الحطب الجاف، تأكله النار، فيؤتى بغيره، و بين لك في قطعة "مشخوتة" منه، أن الفأس التي كان يشقق بها الحطبة الكبيرة، قد لحق بحده عضو حي، فسأل دم ليس بقليل.

وتأكيداً لهذا.. سترى إصبع الإبهام في القدم اليسرى لتلك المرأة التي لا يخطئ اثنان في أنه وجه فلاح لا تهدأ كالنحلة العاملة؛ معصوباً ببقايا قماش مغبر، وراحت تدهك عليه، فتتهدل أطرافه، ويحوش معه كل ما يمكن أن يعلق به.

الوقت سيلج نصفه الأخير في عين المستضيئ بالشمس، ولا يسد للمرأة من إنفاق باقي النهار إلى ما بعد المغرب، في إعداد العشاء، وتأخذ تؤلف عن قرب يناسب قعدتها، أعواد الحطب، فتوهج النار، وتضع قدرها المحمم، أما إذا رغبت في معرفة ما بداخله، فستمنعك عجاجات الدخان التي تكاد تعمي العين، لكنك بمعرفة ما.. ستدرك أن به مقداراً من السائل المتخزن الثقيل.

وربما لا تخطئ فراستك في تقدير آكليهم، الذين لن يزيدوا عن  
النفرين أو الثلاثة.

وإذا بلغ بك الصبر قليلاً، فسترى "شايياً" قد تعدى الستين  
بمسافة، بدقن طويلة بيضاء، تكاد تخفي رأس الصدر، تنهمر من  
أسفل وجه كثير التضاريس، مطبق الشفتين تحت الشعر الغزير،  
وبعينين يقول الناظر إليهما.. إن صاحبهما كثير السؤال، ولا  
يعجبه شيء.

قامته قصيرة إلى حدود لفت العين، وليس بها المنعأة، يلبس ثوباً  
فاقع الصفرة قد تخلى عن قياس "فتر" من الساق، حزمه من  
الوسط بجلد قدم، يميل إلى السواد.

بعد مسافة من الوقت لا تعدى بحيب المنادي؛ ترى شاباً لم يخط  
كاملاً بعد شارب، لا يشبه الأب في شيء سوى العينين.  
دقيق الحركة، لا يقاس بأبيه في الطول، ولا في العظام، ولا في  
تدويره الرأس والوجه، يسوط بجسمه حول كل صغيرة.

كان يظهر في ملبسه نظيفاً، يدعك حتى حذاءه بالماء، ويهدب  
حاله إلى أن يرضى؛ قبل أن يسبق بعض المصلين يوم الجمعة ليقرأ  
جزءاً من القرآن. وقت إذ يتثلث مع أبويه على الطعام؛ يبدأ  
بعدهما، و ينهي أكله وينهض قبلهما.. لا تظنه قليل الأكل.. بل  
قل سريعاً قوي القرص.

عند شرب القهوة، أو الشاي، يخلف اليمين ألا يصبهما غيره، فواجب على الصغير خدمة الكبير، وتخلف أمه أيضاً، مبررة بأنه يتعب أكبر من عمره في شقاء الحياة، لكنه يدلّق الخلفان، فتمسلاً أذنيها، وتخلي يديها عن هذا الشأن، فيزمم جفنيه على العينين العسليتين، ويقننهما مع فرط عنق الإبريق، ويقدم فنجاناً إلى الشايب ذي اللحية البيضاء، فيتناول به يد كشف جلد الكف فيها عن عروق زرقاء، ونثار متباعد لبقع دموية صغيرة على شكل البق، يضعه برفق أمام قعدته المتربعة؛ حتى تسكن سخوته قليلاً، ثم يفرغه في فمه دون استطعام.

أما المرأة، فإن فنجانها يربض في انتظار شفيتها اللتين تكادان تتساويان مع مستوى مسحة الوجه، تقوم وتقعده.. ترفع الإناء وتعود فتجد سفرة الخوص التي أكلوا عليها، فترفعها، وتعود لتقعده، فترى فتاتاً.. فتلقظه فتاة فتاة، وتعود تقعده، يكون الفنجان الساخن قد هدر سخوته في الانتظار، تمد يدها القصيرة المحلاة في معصمها بكهرمان أسود، يخالطه في حمرزه؛ آخر بلون البن المحمص، تظهر على حوافه بقايا عجيين فيبدو أبيض وقاسياً ومتماسكاً.

تشرب فنجانها في جرعات قليلة متقاربة لا صوت لها.

عبر شرب الشاي، والمرأة، لفتحانيهما؛ يكون الشاب قد قضى على الإبريق إلا قليلاً، ووضع الفنجان على قاعدته، خالياً حتى من لعقة برجل ذهاب.

\* \* \*

في كل صباح، يرى الشاب بعين الرائي، ومسمع السامع؛ النذير والنقير، فالشاي يتدمر من هديل الحمام، الذي "يهدن" فسوق راحته "بيغته" الصاخبة قبل الخيط الأبيض من الفجر، ولا حل لهذا المقلق، سوى البيع أو السكن. يسكت الشاب، ويتناقر فيما بينهما بحدّ الكلام، الشاي والمرأة. يتناوبان في حججهما وقتاً، ثم يهدأ الشاي، وتبقى المرأة تنسز حتى تنشغل بشغل لا يمنحها فراغاً للقول، ويخرج الشاي فيضع قدمه على زبل حمامة يقذر قدمه.. يلعن الحمام وساعته، ويعود الهدير بينه وبين المرأة.

ينهض الشاب، ويقرع بقدميه في السلم الخشبي إلى فوق السطح، ينفر الحمام المستكين والخارج عن صناديقه الصغيرة.. ثم يعود فيقعد قرب المشب، وتجيء المرأة وفمها لا يزال ينسز ببعض الكلام المتقطع بالقهوة، فتضعها بقوة أمامه، وتذهب إلى شأنها.

ولن تلد شفتا الشاب كلمة واحدة، ولن يفتح فمه سوى لحبات قليلة، فقدت شكلها، من التمر، وعدد من فجاجين القهوة المتبقية من فطور الشاي وقتما عمسهما بالصباح؛ فرداً رداً مدعوكاً من فوق أنفيهما.

بقيت المرأة تغلي فتافيت بيتها، ثم رفعت ثوبها من أسفله إلى وسطها، ودست دائرة أطرافه من الجانبين والواحدة؛ في حزام وسطها، فكان الثوب بوجه واحد، واتضح نقوش على كمي السروال الأسود قديمة فوق القدم، وبعضها قد انسل من مكانه. انخت، ووهبت يديها مكنسة ذات أعواد دقيقة خضراء و مدبية، وراحت تصفر أرضية الحجرة الطينية، فيتعالى الغبار الدقيق، ويهبط على كل شيء. وكانت النقوش الملونة بألوان مزيجها الجاز، مما جعلها باهتة، قد امتلأت بالغبار، فكادت تطفى الألوان التي قضى في صفها الشاب وقتاً، وبذل فيها غاية ما يمكن من ذوق، على دولاب الخشب المحفور في الجدار، والعمود الذي يتوسط الحجرة، والباب الداخلي حتى منتصفه.

وتلك.. هي المرة التي لا تخصي مع ما قبلها؛ يأتي الغبار على الألوان مع الأيام مع أرضية البيت تنال قبل الكنس رشاً من الماء. أنهت المرأة إثارة غبار مكنستها، وحاشت ما جمعت إلى الركن، ورمت بالمكنسة القش، عليه من يدها، وكان رمشاها وجفناها يحتاجان مع باطن أنفها إلى الماء، فأخذت إبريق الماء الذي يستعمل للوضوء، وخرجت أمام الباب في حوض قصير، تغسل غبارها.

غسلت قدميها، ولم تصب الماء على إمام قدمها اليمين، بل ناوشته من بعيد.



\* \* \*

في الزاوية المقابلة لزاوية "مشب" النار، والخطب؛ تدلت في غير بعيد عن الأرض الطينية المكنسة.. قربة ماء من جلد المساعر، طليت بالقطران، فبدت سوداء بلمعان غير مستقر من أثر الماء المضغوط بداخلها، أو قل، الذي يتجمع في جانبها السفلي.. لقد كانت كالدودة المعقوفة، يلزمها وتد خشبي ظهر جزؤه البارز بنفور أمام كل عين.

كانت القربة تُسقط على أمهل من المهل..قطرة..قطرة، فتحفر القطرات في الأرض تخويفاً؛ يذهب قليلاً مع الوقت في العمق.

يختار الشاب في كل مرة يهب عينه لتلك الحفرة الغائرة تحت القربة، ويكيل بكل مقاييسه في الرأس، ويبحث عن مفتح، ويحاول تصيد القطرات، فينتظر طويلاً، وتساءله تلك المرأة الدؤوب عن سرحانه، فيجيبها بـ: "ما فيه شيء" ثم يرضي أتعابه تلك بأن السبب هو التكرار ولو كان متباعداً، ويزيد: إن الماء قوي إلى حد لا يعرفه كثير من الناس.

جاءت المرأة إلى القربة، وفكتها من معاليقها، وافرغت ماءها المتبقي في قدر فارغ، فكان على قدره، وكأنا قيس عليه، علقتها فوق كتفها اليسار، واحتذت حذاءها، ثم انصرفت لتملأها من

البئر التي تبعد بعدد من المخططات القصيرة، تسند إليها قربتها وقتاً يسيراً، تسترد فيه نفسها اللاهث.

أما وإن كانت مريضة، أو لزمت البيت لسبب قاهر.. فلن يكون في البيت ماء، وربما حتى الطعام الجاهز، وأحياناً؛ القهوة والشاي، وتلقيم الثور، وأشياء كثيرة..

يهبط الشايب إلى الدور السفلي، الذي يستقبل أنف الداخل إليه بروائح علف قاتم، وروث.

ويتقدم دون خطأ إلى مربط الثور الرابض يجتر في أمان الله، وينهره مراراً، يستحنه على النهوض فينهض على غير رغبة، ويثقبه الشايب بعينيه في سطح ظهره العريض، ثم يلتفت إلى مخرج البيت وفي الساحة المحاطة ببناء الحجر الواطئ.. توجد مرابط كالأوتاد، وحزمة كبيرة من البرسيم، وسيأخذ في قضم أعواد الذرة على قدر مفاصلها، ويلف عليها باقتصاد شديد خيوط البرسيم الطويلة اللينة،

ويلقم الثور، واحدة بعد أخرى، حتى يرى بطنه تنتفخ وتقارب الامتلاء، فلا يزيد، وهذا شأن يساعد فيه الشايب تلك المرأة التي تُحضر على تعب من البئر الماء، وتعجن وتصنع الخبزة وتطبخ، وتغسل الثوب والأواني، وتقطع الحطب، وتصنع معه عراكاً من الكلام في كل صباح؛ من بعد ألفة الليل.

\* \* \*

تنيخ خطواتك الأولى عند طرف الساحة، فتعثر عينك دون عناء،  
على قشرة دم سوداء عريضة، فوق وجه الستراب، إلى جانبها  
كومة صفراء كالأعواد الدقيقة المتلاحمة.. كأنما مُصّ ماؤها من  
الروث لذبيحة كبيرة. فتمنح خطواتك العذر حين توقفت لهذه  
الرائحة، التي كما يقال في مثل القوم: ريحة "تعمي الطيور".  
تحاذيها عن يسارك لتدخل الدار، فتعج هاربة، أو متبعة؛ قطعان  
كالرذاذ من الذباب، ويخلق بمسامعك؛ الطنين وحفيف الحوم.  
قبل أن تمد يدك إلى حلقة الباب، لتقرع منادياً من بالدار، يرفّ  
كصفقات الكفين المتحمستين.. جناحات الحمام المفزوع  
ويجيبك صوت الشايب المشحوب من الداخل: "من؟".  
وتبذر المرأة طاقة إضافية دقيقة عاجلة، فتهدب نثار الأشياء  
المتهالكة حول مكان جلوس الضيف، فيبدو للقادم مهياً للجلوس  
دونما إحراج.

..و

ها إن رجلاً يظهر على استنجاده بطاسة الماء؛ منذ أن حط  
متربعا في المجلس.. أنه قادم من ممشى بعيد.  
وها إن الشايب بيد مرتجفة، يتناول طاسة الماء، المملوءة من  
القربة.. من يد المرأة، ويقدمها مبتسماً إلى الضيف، ويقول له  
بعد أن شرب: "هني".

\* \* \*

أما وأن الضيف ليس ممن ينشرح له الخاطر ، فإن الشايب بعد أن يسمع من ضيفه ، أخبار الديار والأمطار ، والحاجة المعروفة التي جاء من أجلها.. سيكون جوابه ، بعد الرد على كافة الأخبار بما يمثّلها من أخبار:

"أصبر يا صاحب " ، وحقك سيصلك وافيًا كافيًا.

أما ان يعلمه بأن الثور الذي اشتراه منه، في ماضي الأيام، قد نامت رقبته على حد السكين.. فإن في هذا شئٌ من التأجيل. وفي أثناء هذا الأخذ والعطاء، كانت المرأة تركّس في المشبّ قهوقها، وتحسن تراكيبها أيما إحسان، وتراكم حبات من التمر كثيرة في طبق صغير لتقدمه رفق الدلة المهيلة. فيشرب الضيف فناجين كثيرة منها، ويلمم النوى على حافة الطبق فيراه كثيرًا، ويكف عن الأكل.

يحلف باليمين الشايب على الضيف بالاستراحة.

ويحلف الضيف أنه كما يقول الكل من الناس : " ما أوفره".

تشير المرأة من قرب المشبّ إلى الشايب، إشارة من يدها، إن كان الضيف سيتغدى .. فيسأل الشايب ضيفه بعد وقوف عن الكلام قصير، ويحلف الضيف أن خلفه ممشيٌ بعيداً، ولا وقت للغداء، فيصدقه الشايب ، ويهز يده في خفية إلى المرأة.

يلزم الرجل عصاه النخيفة، والتي لا تشبه أي شئ به بنحافتها سوى أحد أصابع يده، لا تدفع عن خطر ولا شر، لكنها عادة

رافقت كل غادٍ وآتٍ، فاليد ليس من طبع صاحبها أن تكون  
خالية.

فيزيد الشايب وفي صدره نفس مريح بقبول ضيفه عذر التأجيل:  
إن شاء الله .. حقتك سيصلك.  
يهبط الرجل إلى الساحة مخلفاً في ظهره " تراحيب " مضيفه  
وهو يودعه إلى الخارج، وتنبُّ بطنينها تلك الذبابات عن يمينه،  
فيحيط بطرف عمامته أنفه وفمه، وتبدو ذؤابة صغيرة سوداء  
من لحيته تحت اللثامة، يمشي حثيثاً كأنما شيء لا قدرة له عليه  
يطارده، ولا يقطع خطواته إلا شاب على حمارة رمادية  
قصيرة.. ينهال عن ظهرها قافزاً، ليسلم عليه و.. يمضي لقد  
كان ابن مضيفه.

اهترت نظرة الشايب، و رنحت خطواته، فكاد أن يميل على  
جنبه، ودمدم بخفوت: " يعوض الله ".  
ومع أنه يملء عينيه رأى مربوط الثور خالياً، إلا أن الرباط  
و" الخزام " كانا يوهجان في صدره لوعة ما.  
ووقتما دخل على المرأة، لقيها تذكر ذلك الرجل ببعض السوء،  
وتهيل على سيرة دعت الشايب لشراء الثور، بالسباب.  
فأخذ الشايب وأعطى معها في الكلام، وقال بصوته المشحوب،  
إنها تعترض على قدر الله، ولكل شيء سبب، فلو لم يأكل الثور

من زرع الذرة الذي أعجب بخضرتها وطراوتها، لما حشره  
ومات.. وزاد:

أحمدي الله، أنا لحقناه على آخر نفس، فذبحناه، وتصدقنا  
بلحمه، وهذا حال الناس مع حلالهم.

وكان الشاب يقف بينهما، فيلقي بكلمة هنا، وكلمة هناك،  
رغبة منه، في إسكاتهما عن أمر ذهب وانتهى.

..

## المستورة



وألقت بها النهارات ببياضها، والليالي بسوادها، بين صروف أحداث لم تكن مع الزمان تحسب لوقوعها حساباً، فنالت من بساطتها، وفاضت شبعاً من مرارتها؛ صفقت الكف بالسالكف، وسالت من العين مثلما سالت من الأخرى؛ مياه حارقة، وغير ذات فائدة.

قالت النفس الراكدة في تعب الدنيا: (وماذا بعد يا واهبة الحزن دمع العين، وأنة الصدر؟، والله لا تفيدك الأحزان، ولا تدب الليالي).

كان القريب؛ بالاسم قريباً، وكان الصديق في الزائرات يمر بالعام.

\* \* \*

حملت "رحمة" ابنها الرجل المريض، سحبت عن شواربه هم الأطفال والزوجة، وصاحته من دار إلى دار، ومن مستشفى إلى آخر، وقالت: (أحمله على كبر الأرض، وبعد الأسفار.. يطيب، يطيب، ولو بعد حين بعيد).

وكان المرض "الخبث" يتفسخ بلؤم في الجسد الطريح، ولما حان الحين الذي لا يؤجل؛ ودعته بقيلة أخيرة في اللقافة البيضاء، ولم تجر خلفه في الجنازة، ولم تقعد باكية فوق القبر، ولكنها كتمت ثم انهمرت غصباً بين يدي زوجته والأطفال.



فتمت ذراعيها ونادت بيقين: (هلموا يا فراخ عمري، أنصكم من لقمتي، وأرد عنكم البرد بكسوتي).

ولمت إلى جانب أطفال ابنها الميت؛ الزوجة الشابة، فمناحتهم كل حب قلبها، وكل عطف حناياها.

\* \* \*

نما الأطفال، فكبر الصبيان، وقطفوا جهد دراستهم، وكبرن البنات، وكذا رأين ثمرة الدراسة، وجاء يوم تخطو فيه المراحل، وكانت "رحمة" تحفظ حتى قيمة البيضة وصغير النسيج الذي تقيمه وزوجة الابن بين أياديهن، وفي غير تقتير؛ يعيش الكل في ستر وأمان.

(ماذا كتب عليك في هذا الصباح المقتم يا رحمة؟).

كتب أن يعلن الأولاد نيتهم "نهاراً جهاراً"، بأنهم لا بد سيسافرون! وإلى أين؟!

إلى المدينة التي يضيع فيها الراعي والرعية، إلى تلك الأماكن التي يقولون أنها كالوحش، يأكل الآتي والذاهب، ولكن لا بد من السفر، ففي السفر إلى المدينة تستكمل الدراسة، ويلقى السدارس في آخر الرحلة ما كان من أجله درس في الطفولة وفي الصبا.

مسحت "رحمة: بطني كفيها، كأنما تنفضهما من شيء عالق، وعلقت: (خسرت يا رحمة.. تبقيين مع زوجة ابنك، تنشدين

المسافر والقادم عن أحفادك، فيقولون: في الجامعة؛ الأولاد والبنات، لكل دراسته وحياته إلى يوم يتخرجون).

\* \* \*

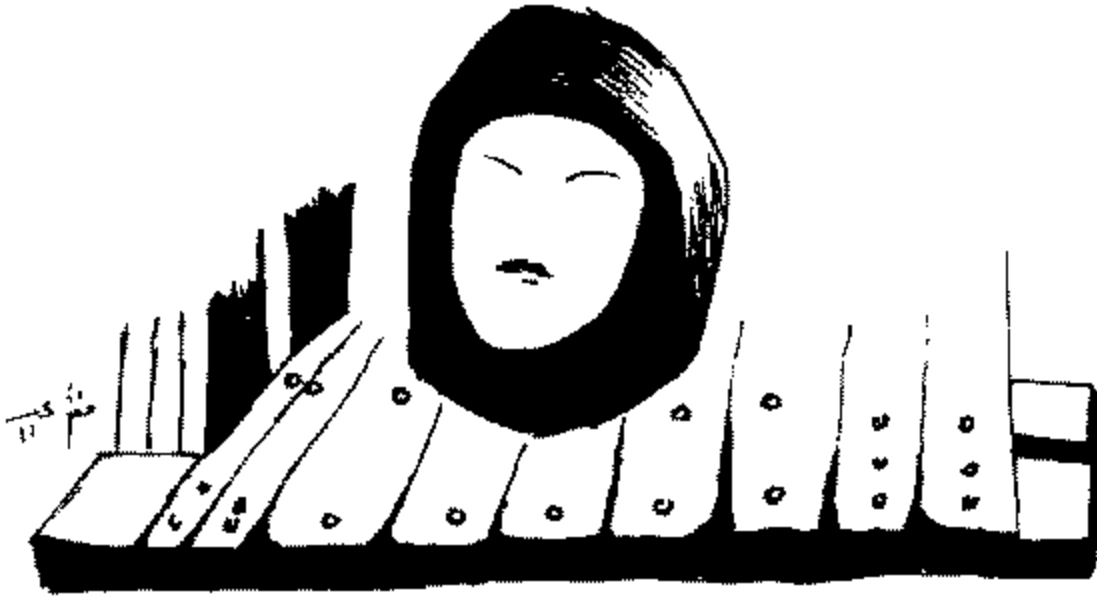
دعت زوجة الابن أم زوجها، وكانت تناديها بـ "أمي"؛ إلى الغداء فامتنعت، ولم يكن في ذلك الامتناع ما يدعو إلى الخوف، أو التعب، فهي تأكل في ذيل النهار وجبة خفيفة واحدة، وتبقى تشرب القهوة المبهرة بالجنزبيل، حتى لتكاد أن تحتقن. قالت زوجة "المرحوم"، وصرفت عينيها إلى شيء بعيد عن وجه الأم:

(كيف يا أمي، تحملين الهم على الأولاد؟، أنا قلبي يفيض بالغربة، ولكن عيني تمتلئ بهم، تتغير حياتنا، ومن أحسن الناس نصبح بعد التعب والغربة وعذاب البعد.. قولي، كيف لو أنهم لم يتعلموا؟، ينفعون أنفسهم، وينفعوننا، وينفعوا الناس).

شربت "رحمة" آخر قطرة من الفنجان "الصيني" وحركته بوضع دائري بين السبابة والوسطى، ثم أدارت وجهها المحضون في ثنايا "شيلة" سوداء خفيفة، وابتسمت ابتسامة كانت زوجة الابن تتمناها منذ زمن بعيد، وراحت تعدّل من قعدتها، وتنظر بعينين فرحتين إلى الفضاء الواسع البعيد مسن خلال فتحة الباب المستطيل.

الدمام — ١٩٨٩ م

## حمقة



ازداد تعب "عاطي" مع جري الزمان، من زوجته "حمقة"، وبلغ منه حمقها حداً دعاه إلى شدّ نية السفر.  
 وحين أذف به الوداع.. قال موصياً؛ وهو يشير إلى ثلاث "خِصاف" متفخحة بالحبوب: (انظري يا مخلوقة، عندك اليوم هذه "الخِصاف"، لن تحتاجي بعدها في القرية أحداً؛ واحدة لشعبان، والثانية لرمضان، والثالثة لقصير.. سأعود ربما قبل نهاية الشهر الثالث).

\* \* \*

مضى تتقاذفه الطرقات.. من قرية إلى وادٍ إلى جبل، وساقته خطواته إلى صوت رقص ودفوف.. فدخل قرية على مقربة من زوال الشمس، ووجدهم بالشبّك يرقصون ويلعبون متساقزين على الطبل، غير أن هذا لم يستجر فيه النجوة المستقرة - كعادة من يهتر مع الراقصين-، بل دنا من عجوز تجلس على مسافة رمية الحجر من القوم.. تنظرهم وتمسح مدامعها، وسألها عما أفعدها في هذه الحال!، فالقوم يتتهجون ويغنون ويرقصون؛ وهي منكفئة تبكي!

قالت إنها تبكي على بنتها التي كانت من أجمل الطالعات في أول العمر، وقد حذفت بها المنية، وبقي لها في القلب احتراق، وعندما تكون بهجة القوم تزلزل أبدانهم بالرقص، تطغى بها الذكرى، وترى طيفها بينهم كنفرة الغزال.

حدّث "عاطي" باله، وقال سأرى إن كان في الديار أحمقاً بحماقة تشابه "حمقة".

ابتهجت سرائر العجوز، وإلى بيتها دخلت لتأتي بالحلي والمال؛ حين عرض عليها مقدرته على إيجاد بنتها بين القوم، بدفّ يخرق الآذان. ورقص يلثم الأبصار، وقال إنه بعد أن يقبض منها النقذ والجوهر.. تلزم بيديها الدف وتلتحق بالمغنين الراقصين بأبلغ ما يمكنها من الجهد والمعرفة.

فعلت العجوز مثلما أراد "عاطي"، وهبّت النشوة العاصفة في عظامها، فاستدرجت عجب القوم وضحكهم.

وكان "عاطي" وقتها.. قد اخترط المصاغ والمال، ووهب قدميه للطريق، وحين علموا بعد قليل، أن غريباً أوقع بعجوزهم الحمقاء ما أوقع.. هدموا رقصتهم.. وجروا كالقطيع المندفع خلفه، لكنه درى بما نوره خلفه.. فأضاف إلى قدميه العزم والتوالي.

قابل "عاطي" مزارعاً يخط بالمخراث خلف سانية بثورين؛ ينطق فيهما من الشحم سنامهما، وكان لأهل قرية العجوز.. التي جاء منها هارباً (تأر) رقبة رجل في خلاف قديم لعبت فيه البنادق بأنوفها، عند قوم منهم هذا المزارع خلف حلاله.

حدّث "عاطي" نباهته.. بأنه لو غرر بالمزارع وهو يسأله عما دعا الناس خلفه يجرّون؛ فسيجيئه.. (رأوك وحيناً قرب بيوتهم

تحرث في أرضك.. لهم فيكم رقبة رجل، وجماعوا يهدرون  
دمك).

لم يكن "عاطي" ليعلم بما قد حدث بين القريتين.. غير أن  
الصدفة كانت في طريق مكسبه.

التفت المزارع إليه قائلاً: (هاك هييتي، واعطني هييتك، أتكر بما  
وأهرب، وهذا حلالي ومحراثي بين يديك) وهرب.

مر الجماعة بـ "عاطي" وهو في هيئة وملابس لم يكونوا قد  
رأوها من قبل فيه؛ فما عرفوه.. بل سألوه إن كان رأى غريباً مر  
هنا؛ سرق عجوزهم ويريدون الأخذ منه؟!!

قال.. نعم، جرى في التو؛ انظروه يجري هارباً من هناك، فجروا  
إلى هناك.

حطَّ "عاطي" محراثه و"مقرنته" عن الثورين، وساقهما قدامه  
على مهل إلى الطريق.

وقف بيباب الدار ونادى بالصوت المرتفع:

- يا حمقة..

.....

- يا حمقة.

ولم تحب حمقة، طرق الباب قوياً وملحاً؛ فأجابت:

- اسمي ليس حمقة.

عجب لصوت زوجته تستكر اسمها! فسأل:

- من أنتِ إذاً يا...!؟  
- أنا "زهرة الوادي".  
- نعم؛ "زهرة الوادي"، قلها.. وإلا لن أفتح لك.  
فقالها على كره وعجب، ولم يرغب عنه أنها قد فعلت أشد حماقة مما هي عليه، لكنه لزم كل جيوش الغضب في صدره؛ وقعد قريبا ليتعرف إلى ما جرى معها في الاسم الجديد.  
قالت إنها اشترت اسماً جميلاً، بدلاً عن ذلك الذي يعيّرُها به الناس؛ بكل ما تملك من المال والجوهر.  
وعن "خِصاف الحب" الثلاث التي تركها لها قبل سفره..  
فقالت جاء "شعبان" فأخذ خِصفته، وجاء "رمضان" وأخذ خِصفته، وجاء "قصور" وحمل الخِصفة الثالثة التي قلت لي أهل باسمه.

صاح "عاطي":

- يا حمقة.. الخِصاف الثلاث؛ للشهور الثلاث؛ ليست لرجال ثلاثة.. هل ازددت حمقاً؟!  
ردت من أعلى أنفها:

- لا تدعوني ثانية بذلك الاسم، لن أحيبك.. أنا زهرة الوادي.

\* \* \*

حضن "عاطي" بين يديه لحيته، كأنما يردها عن السقوط، ثم شدّها بالأصابع حتى كاد ينزعها مع شذقيه، ومن فتحة النلفة

ساق بصره إلى الطريق البعيد، وراح يهدأ رويداً، ويسلسل  
الأمور:

(فقد كان خلف الباب، وقت إذ كان يوصي زوجته معدداً  
الخصاف.. رجل، صب بصيرته عليهما، وفي كل شهر ينكر  
هيئته ويحيء ليأخذ خصفة ذلك الشهر وهكذا جرى بكل  
الشهور التي كان "عاطي" فيها غائباً، وقبل عودته بأيام.. عاد في  
هيئة رابعة ليغير اسمها الذي لم تكن لترغب فيه). وعاد يذهب  
مع خاطر في الحديث "عاطي":  
(كنت أدور عن قوم بلا حماقة، ولقيت أنك ربما كنت أهوهم).

٢٧/٦/١٩٩١م — جلد



**نوادير "أبو سالم"**  
**مع الحيوان**



## ١ الجراد

في الأقوال المتداولة في المجالس، يؤكد أهل القرية أن "أبو سالم" لم يتعرض لأذى خلل في دماغه، بل إن أحد المتحدثين قال إنه رأى بعينه الثاقبتين.. - يصيها العمي إن كان كاذباً - ، رأى جلدة رأس "أبو سالم" عندما دعاه ليظلي رأسه بالماء والصابون، ويشحذ "موساة" لخلافته:

سليمة من أي أثر تعرضت له دون علم البقية.

فماله؟! مرة بالذكاء ومرات في الغباء.

\* \* \*

دخل "أبو سالم" من باب البيت، واهتز الباب الخشبي في أذني أمه العجوز، وكانت تقعي من العجز في ركن الدار، وتلف حولها ما تستطيع من أغطية البرد والخلق، فهي تستشعره حتى تحت دفء الشمس الصيفية.

سألته عن الفجعة التي هبطت على وقت الغفلة فجعلته يندفع كما هبوب العاصفة! أجاب وهو يقدم ساقيه نحو معلاق البندقية كما هبوب العاصفة! أن الجراد قد غزا المزارع، وأنه يحلّ بعدوق الذرة، ويحيل بياضها إلى عراجين بلا حبوب، وقد تلون كل أخضر بحمرته.

\* \* \*

جمع الفلاحون عزائمهم، وتبعثر أولادهم في المزارع يتفرون  
الجراد، ويصطادون منه في الأكياس، فيفيض ويتسرب من كل  
جانب، وكانت السماء صافية، والشمس تسيل فوق كل شيء  
دون بخل.

\* \* \*

قعد "أبو سالم" على رؤوس أصابع قدميه في ركن أرضه  
الخضراء، وعباً بندقية الصيد، وكمناً يتهاى بحذاقه لتصويب  
"قمرية" على غصن بعيد.. راح يصوب فوهة البندقية، نحو  
عذوق الذرة.. ورمى، فنقذ رصاص القنص، وتعيب كتفه  
اليمنى.. بل كاد ينخلع، وها هو يحارب جيوشاً لا تحصى.  
حين أدرك أن المقاتل في العادة، يستسلم حين يخونه السلاح..  
رمى بالبندقية أرضاً، وقد سخنت ماسورتها، واستهلكت ذخيرة  
الحزام المنضود على الوسط.

١٩/١٠/١٩٨٧م — الدمام

### ٣ الثور

خَلَفَ الشتاء عُقب رحيله؛ سيرةً طويلةً في عظام أم "أبو سالم"،  
وأضافت إلى دعائها الملحَّ - بأن يأذن الله بجزيمة البرد-، وقتاً  
سيطول تقطعه إلى جانب موقد النار، وقالت، كعادتها.. إن  
شمس مؤخرة الشتاء وطلائع الربيع تكون باردة.

أما المساحات المحدودة بضيق، والتي غالباً ما كانت تحيط بالدور،  
فقد نُحِضت من غيرها وحوّلها نباتات خضراء، وزهور صغيرة،  
وأشواك لينة كثيرة، وكانت تغذي الناظر إليها بهجة ربيعية  
منسرحة تحت هطول الشمس بعد غياب طويل.

وكانت الأرض تسمى أديمها الرطب لتلقي البذور تحت سِنَّة  
المحراث، وقالت أم "أبو سالم":

(يا ولد الخير.. دَلَفَ فينا موسم البذور، وامتألت الآبار من  
مطر الشتاء، واحضراً كل عود يابس، وتوفر علف المواشي..  
فإننا نحتاج إلى ثور بسنام سمين، وجهد فحول، نجعله جروراً  
للمحراث، نزوعاً لماء الغرب من البئر، فاهبط سوق القُرى،  
واستعن بالله ثم بخبرتك في الشراء.. وفقك الله، ودلّك على  
بغيتك).

أخرجت من "شيلتها" عقدة مضمومة، فأهملت رباطها، وفضتها  
عن آخر جماعيدها.. ريبالات معجونة تنفخ الدفء والرطوبة

وروائح العجوز التي لا تُخفى، وأكدت أنها كانت تؤلفها من  
سابق الزمن، و"تنش عنها الذباب".

\* \* \*

فاض وجه "أبو سالم" بالرضى، وقبض على "دلدول" لحيته..  
و"معطها" من الانفعال، حتى اندلق معها نصف شفته السفلى،  
وتلك لزمة الوعد بالتنفيذ.

\* \* \*

جال في سوق المواشي، حك جلدة رأسه السليمة وفكر ثم قرّت  
عيناه على ثور أحمر "قمامي" المولد والنشأة ساوم وقاوم في  
الثمن، غير أن البائع زاد من القيمة القائمة ثمناً للرباط  
ولـ"خزام" الأذن، ولم يمانع "أبو سالم" واستوثق من صاحبه  
طبع ثوره الذي لا ينطرح، ولا يرتع ولا يعصى لأمره أمر المرید.

\* \* \*

فرحت أم: أبو سالم" بالوافد الجديد، وغزلت على ستامه وأذنه  
المنقوبة كلام المديح، وقامت برغم برد عظامها، ومسحت  
بيدها ذات الخاتميين الفضيين المنكسري اللمعة؛ على ظهر الثور.

وكان "أبو سالم" يهيب بفراسته، ويفتل شاربيه، وكأنه هو الذي صاغ سنامه المائل.

\* \* \*

أصبح صبح صبوح، واقتاد "أبو سالم" من الرباط رقبة ثوره إلى الأرض، فركب عدة الحرث من أمام السنام، إلى جانب حمارته الرمادية، ورفع "عرقه" سوط الجلد داعياً الثور نحو العمل، فسهز الثور ذؤابة ذيله وتقدم خطوتين ثم.. تسمّر كشجرة ضخمة، نهره "أبو سالم" لم يزد خطوة، مال على ظهره بوجع السوط فما تحرك سوى أن يورجح رأسه كما لو أنه يطرد ذباباً. أهمل مقبض المحراث، وتقدم إلى رأس الثور، وهو يشد بيده على عصا الفأس قائلاً في عصبية جبلية:  
(خيرتك، فاختر..)

تعمل مثلما أريد، أو ترد لي دراهمي، وإلا...)

١٩٨٧/١٠/١٩ — الدمام

### ٣ الأرنب

لم تكن الأرانب على الغالب عند أهل القرية بمعرفة، الصدفة النادرة في الجبال البعيدة عن إقامة سكن الناس، تقع في طريق أحدهم، فيعرفها بالوصف، كان من أبلغ أوصافها؛ أنها تشبه في جسمها القط الكبير، وفي شفتها العليا، شفة الحمل، وفي ذيلها، ذيل الحمل، وفي أذنيها؛ أذني الحمار، وتقفز كالضفدعة، أما إذا فاجأها الخطر فهي كالغزال النافر. وكان الكل يعلم علم اليقين، أن الأرنب مثلها مثل القطط، تحمل وتلد، وترضع وتقطم.

\* \* \*

السما تكتنز بحشد متغصن من الغيوم، ونفثات الضباب كما يقولون: "لا تشوف طرف إيدك"، ومع كل هذه الأسباب المدججة بظلمة نور بقايا النهار، فقد كان وقت أذان المغرب يكاد يحين.

كان "أبو سالم" يريح "مسحاته" على كتفه اليمين، ويجرر قدميه عائداً من الوادي إلى البيت، وسيطوف بالطريق المحيط، بالقرية من جهتها الشامية، ثم يلقي السلام على الجماعة منتظري حلول وقت المغرب، يصلون.. ثم يعودون إلى بيوتهم للعشاء والنوم، وكذا "أبو سالم".

\* \* \*

أشجار اللوز الجبلي تتوزع بلا انتظام في المساحات أمام البيوت،  
وفي الجهة الشامية - ربما لسبب أو لآخر - كانت هناك،  
تنتصب منذ عشرات السنين:

تطرح ثمرتها ناقصة عاماً إثر آخر، إذ كانت يجذوعها بنية اللون،  
وكالقرفة المحروقة، وبأغصانها الشائخة، صالحة كمحطات  
للعصافير، والحرباوات، وبعض الحشرات؛ لأن تقيم بها مساكنها.

\* \* \*

ألقى "أبو سالم" بأغلاظ الأيمان، - وهو على وضوء - أنه لا  
يقول سوى الحق.

فقد مرقت قاطعةً طريقه.. أرنية بيضاء تشبه قطعة جارهم  
الكبيرة، وخلفها تتبع أثرها إلى اللوزة؛ عثر على عشها و بداخله  
بيضان كبيرتان.

كان الجماعة يتذكرون بعض الأحاديث في فضل العمل الصالح،  
ولما دلق "أبو سالم" ما جرى له - بعد إلقاء السلام - كان  
وقت الأذان بالضبط يحين، فأذن المؤذن، وكان يحسب النواذر  
"الأبا سلمية" حبه للقهوة والتمر، ولم يكن على صحة من  
الأذان، فقد كرر "الله أكبر" ست مرات دفعة واحدة، وختم "لا  
إله إلا الله" مختلطة بدفعات هوائية تشبه العطس المكتوم، مما دعا  
بالآخرين إلى الإفصاح بما على هيئة قهقهة واضحة لكل الأذان  
الصاغية لوقار الأذان.

١٩٨٧/١٠/١٩ - الدمام



## ٤ العنز

للشاعر في القرى مقام المحسود، وله الموضوع المذكور عند الصبايا، وله مناعة القول، وله في شدة المناسبات حكم الفصل وطاعة القاضي.. فلم لا يكون "أبو سالم" شاعراً؟ ولم لا يفرط في هذه الأمنية بين يدي الجماعة بين حين وحين؟

\* \* \*

قالوا، تسلى بإيهامه.

وقالوا، علها تصيب، وعلها تخيب، فإن "صابت" فما أسهلها علينا، وإن خابت فما أصعبها عليه.

أشاروا عليه، أن شياطين الشعر لا تأتي كل من يرغبها.. لكنها قد تجيء لمن يطرح وحدته معها في الليل بقفر بعيد عن المساكن، على أن يذبح لها عنزة، يمرغ دعوته بدمها.. يخلع جميع ملابسه ويقعد إلى جانبها.. "عارياً كما خلقه الله".

\* \* \*

تناطحت الظنون بخاطر "أبو سالم"، ووازن بين الرغبة والمخاطرة، وكان الخوف من جن الليالي المغدرة؛ ينمو مع كل الأهالي منذ الطفولة، وكذا نما مع "أبو سالم" إلى جانب عشقه للشاعرية.

غير أنه عزم، وكان إذا عزم قبض على "دلدول" حيته، وجذبها بعنف بسيط حتى تنجذب إنفرادة الشفة السفلى.  
فاختار عنزة سوداء من بين القطع، وأركبها كتفيه، فتدلت أطرافها عن اليمين، وعن الشمال، وبدا رأسها بقرنيه وأذنيه الهاطلتين كالخرق الخاملة.

وعلى حين نوم الناس بعد صلاة العشاء، وهب قدميه للفيافي البعيدة التي لا يحدها سوى شبح الجبال في الظلام.

\* \* \*

أنزل العنزة عن كتفيه على مهل، وكأنه يسكب سماً من القربة، لكن هدوء انسيال السمن في القرب، ليس كالزمامير النافرة من لسان العنزة وسط الفيافي في الليل.  
شحنه سكينه على حافة صخرة بارزة، وفرك بجزءها رقبة العنزة فخرخر الدم، وتدافعت أطرافها الأربع في الفضاء الرحب طويلاً.

لم يفصل الرأس عن الجسد؛ حتى استوى منتصباً كالجدع، وخلع ملابسه واحدة بعد واحدة.. ثم قعد متكئاً إلى الصخرة منتظراً شياطين الشعر حتى الصباح.

\* \* \*

علم الأهلون أن الغداء على ذبيحة عند "أبو سالم"، وقالت زوجته، إنه جاء بها مذبوحة، وتعب في سلخ جلدتها الذي برد على لحمها في الليل، وأن الحمى تمز أوصاله.  
وكان "أبو سالم" يمزغ قطعة متجلدة من لحم العنز، يتبلعه كما الخنظل في صمت جارح لا يعرف معناه إلا هو.

١٩٨٨/٤/٧ — الدمام

## ٥. القطة

لم يكن السبب الذي جعل من هدوء أول الليل، وتهيؤ كبير العائلة وصغيرها، للعشاء المنتظر، جديراً بحاصل ما حصل.  
فها إن "أبو سالم" يدفع يديه المطهرتين بماء الوضوء.. على خفوت النار المتهالكة أمام قاعدة جسده الملموم كالتقبضة، وإلى جانبه: الزوجة التي هتكت طاقتها منذ صلاة العصر.. تعجن في قدر متوسط أسود.. الطحين والماء والملح، وتسوط بهراوة قصيرة عصيدة الذرة.

وثلاثة أولاد، اثنان بزوجتيهما، وكلاهما ينتظران مولوداً، وبنيت في التاسعة.

\* \* \*

كانت قطة رمادية هزيلة كالخرقة.. تموء، وتلف بمكان الجمع، وحيناً تهره، وتمسح برأسها.. ثم بذيلها على ركبة القاعد.  
فهرتها زوجة الابن الكبير:

- هيا انقلعي.. ما تشبعين يا مسعورة؟!

نظر "أبو سالم" إليها مؤنباً بنظرته الرخوة:

- لا.. لا، رزقها من رزقنا.

امتدت يد "سالم" إلى ذيلها، وجذبها كأنما يشدّ دلوّاً فارغاً، فتشبّثت القطعة بركبة أخيه، وغرزت مخالباها الأمامية، فصعق من الوجع.

\* \* \*

حينما فزعت القطعة.. كانت تلقي بخوفها وهشاشة عودها حيثما التحات.. في صحن العصيدة و"المرقّة"، وكانت "المرقّة" تنضح ببخار حارق، وتندلق.. وحيث أن "أبو سالم" قد هدّب لقمّة أولية، وحفف أطرافها، وجعل حفرتها على هيئة فنجان القهوة الصغير، ولم يُهَيأ لها أن تغمس في المرقّة.. هزها بين أصابعه، وقذف بها، فجاءت دون عمد في وجه زوجة الابن الصغير، وكانت هي الأخرى، تجهز لقمته، وظنت أن القذيفة اللينة تلك.. جاءت من يد الزوج، ولسبب ما دحرجت لقمته أمام يدها، فوقعت مع الغضب في جبين "سالم".

\* \* \*

قال الناس:

- عيال "أبو سالم" تحاذفوا بالعصيدة.
- "الله يكثر العيش" .. غداً ينتقم منهم رب الأرزاق.
- " .. تحفرها أصغر الثيران، وتطيح فيها أكبر الثيران".
- "الله، لا يضلنا" العقل نعمة.. حسدوا القطعة.. فأكلت حتى انتفخت.

\* \* \*

كانت القطة تحوم في المناسبات حول دار "أبو سالم"، ثم تنصب  
آذانها، وتجري كالرياح، فبعد ضحية عيد الحج، جلس "أبو  
سالم" يقطع اللحم إلى فتافيت صغيرة، تحفظ مع الملح والبهار  
الأسود، بعد طبخها أدماً لليلي الآتية، إذ امتد رأس القطة،  
فاجتر "سالم" أنفها بحد السكين، وقذف بها إلى الساحة.

يناير ١٩٩٠ — الدمام

